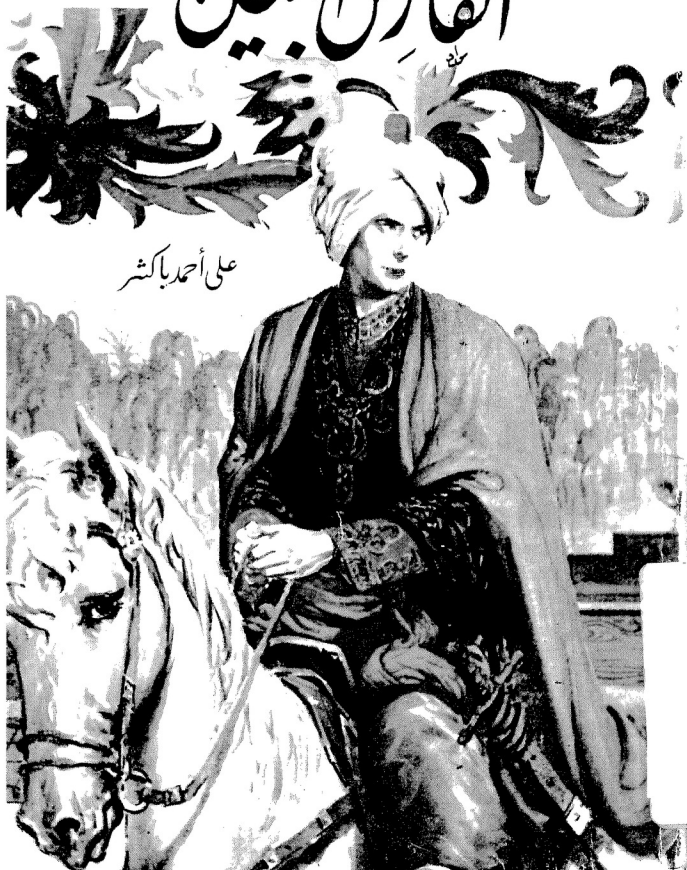




الفارسُ الحَمِيلُ

على أحمد باكثير

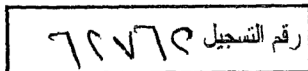
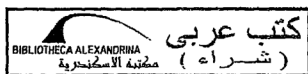


الفَارِسُ الْمُحْمِلُ

الفارِسُ الحَمِيلُ

تأليف

علي أحمد رضا بكثير



الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كاسر سعدى

تقديم

١

هذه هي القصة التاريخية الخامسة للأديب الكبير : على أحمد باكثير ، ظلت طى النسيان ، منذ نشرها على ثلاث حلقات ، فى مجلة « القصة » المصرية عام ١٩٦٥ م — الأعداد ١٤ / ١٥ / ١٦ — إلى أن تبرعت « مكتبة مصر » — كعادتها فى الاهتمام بأدب باكثير — بطباعتها ، لتنضم إلى قافلة الروايات الأربع السابقة سلامة القس ، وإسلاماه ، الثائر الأحمر ، سيرة شجاع . .

وبهذا يمكن للنقاد ، الوقوف على مسار التطور الروائى عند باكثير . فهذه الرواية لا تقدم الجديد فى الفن الروائى التاريخى عند باكثير فحسب ، بل وتعيد النظر فى أقوال النقاد حول الرواية التاريخية فى الأدب العربى :

١ — فهى ترد على الذين يزعمون أن الرواية التاريخية ، جاءت مرافقة لفترة المد القومى ، ثم اختفت بعد ثورة مصر ١٩٥٢ م . وقد كتب باكثير رواية أخرى غير هذه بعد الثورة ، تلك هى « سيرة شجاع » سنة ١٩٥٦ م .

٢ — وهى ترد على الذين يزعمون أن الرواية التاريخية ، إنما تناسب الأديب فى بداية مشواره الروائى لسهولة اختيار مادتها ، وضعف الخيال فيها . وهاهو باكثر يكتبها قبل وفاته — رحمه الله — بأربع سنوات . ولم يكتب رواية غير تاريخية إلا « ليلة النهر » . وهى أضعف رواية — فنيا وموضوعياً — .

٣ — ويرى باكثر أن المادة التاريخية أفضل من المادة المعاصرة ، فى إيصال الهدف الفنى : « إن الفن عمومًا ، والفن المسرحى خصوصًا ينبغى عندى أن يقوم أكثر ما يقوم على الرمز والإيحاء ، لا على التعيين والتحديد ، فتكون الحقيقة التى يصورها العمل الفنى ، أوسع وأرحب من الحقيقة التى يمثلها الواقع .

وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر ، لأن أحداث التاريخ قد تبلورت على مر الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابس والتفاصيل التى ليست بذات بال من حيث الدلالات التى يتصيداها الكاتب للوصول إلى الهدف الذى يرمى إليه فى عمله الفنى .

حقا إن أساس الفن هو الاختيار ، والفنان يستطيع أن يختار من المادة التى يجبل منها موضوعه العناصر التى يراها ذات دلالة وي طرح ما ليس كذلك ، سواء كانت هذه المادة من التاريخ أو من الحياة المعاصرة ، غير أن التاريخ للسبب الذى أشرنا إليه آنفا أعون على هذا الاختيار المطلوب من الحياة المعاصرة التى يصعب تخليصها من الزوائد والفضول الخالية من

الدلالة التي يقصدها الفنان « — فن المسرحية من خلال تجارى الشخصية ، ص ٣٩ — ٤٠ .
أعتقد أن هذا المفهوم النظرى ، تعضدة التجربة العملية للروائى
باكثير ، يدعوان النقاد لإعادة النظر فى مفهوم الرواية التاريخية ، وفى
دراستها — كذلك — دراسة جادة .

٢

ومن ملامح التطور الفنى — لدى باكثير — فى هذه الرواية ، أن البطل
« مصعب بن الزبير » ، قد حظى باهتمام الكاتب ، اهتماماً كبيراً ، إذ
استغنى المؤلف عن الجانب الشكلى لشخصية البطل ، وركّز على الجانب
الباطنى ، حيث يدور الصراع الداخلى بين حب مصعب لنسائه الأربع ،
وبين واجبه إزاء أخيه عبد الله ، خليفة المسلمين فى مكة — فى مواجهة
خصومه كالخوارج والمختار ، وبنى أمية فى الشام . وتبلغ المأساة ذروتها
حين يدفعه حُبّه لزوجته « سكينه بنت الحسين » ، وواجبه لأخيه إلى
مقاتلة صديقه ، ورفيق صباه « عبد الملك بن مروان » — خليفة
المسلمين فى الشام — . وكان مصعب حريصاً على تجنب هذه المواجهة .
ويوظف « المنولوج الداخلى » فى الكشف عن أثر هذا الصراع فى
نفس البطل توظيفاً ، قل ما نجده فى الرواية التاريخية .

ومن مظاهر التجديد أيضاً الاقتصاد البارع في الحدث التاريخي، إذ تنتهى الرواية قبل وقوع المواجهة العسكرية بين جيش العراق بقيادة مصعب ، وجيش الشام بقيادة عبد الملك ، ذلك أن هذا الحدث — لو حضر — لن يقدم شيئاً جديداً . فكل ما أراده المؤلف قد تحقق : تصوير الصراع في نفسية هذا البطل . استعراض أسباب النصر ، وأسباب الهزيمة ؛ فسياسة عبد الملك الحكيمة ، وكرمه يقودانه إلى النصر ، وسياسة عبد الله بن الزبير الهوجاء ، وبخله يقودانه إلى الهزيمة . فنتيجة المواجهة العسكرية أصبحت معروفة لدى القارئ ، فما الداعى لتفصيلها ؟ . ونهاية البطل كذلك ، فما الداعى لمواصلة السرد حتى موته ؟ .

ولقد تطورت شخصية المرأة كذلك . فهذه « سُكَيْنَةُ بنت الحسين » تناقش زوجها في أمور السياسة . بل ربما تزوجته لهدف سياسى بحث ، هو : الثأر لمقتل أبيها . فضلت تدفع زوجها لمقاتلة صديقه عبد الملك ،

لتشفى غليلها من قتلة أبيها من بنى أمية .

٥

وأخيراً إن التنبؤ بهزيمة حزيران ١٩٦٧ م ، واضح جداً كمغزى رئيسى لهذه الرواية . فما أشبه سياسة جمال عبد الناصر بسياسة عبد الله ابن الزبير : البخل ، تحويل الأصدقاء إلى أعداء ، الاستبداد بالرأى . تلك هى معالم الهزيمة فى كل معركة ، يهدىها باكثر لكل حاكم ، فى كل مكان وزمان ، عبر هذه النهاية المفتوحة لهذه الرواية . ولا يسعنا إلا أن نردد مع مصعب :

« آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام » .

أبو بكر البابكرى .

القاهرة ٥ / ١ / ١٩٩٣ م

الفارسُ الجميلُ

هذه معالم مدينة البصرة تلوح له في الأفق من بعيد . وجواده ينطلق به نحوها ينهب الأرض ويسابق الريح كأنما له هو أيضا حبيب في البصرة يجرفه الشوق إليه . إن هي إلا لحظات ويدخل أحب مدن الأرض إلى نفسه لأن فيها أحب نساء الأرض إليه .. سَكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله .

لقد انطلق من الكوفة وقلبه مشدود إلى زوجته هاتين ليقضى بينهما بضعة أيام ينسى فيها القتال والنزال ويستمتع فيها بأروع آيات الجمال والدلال . ولكنه لا يدرى بأى هاتين يبدأ وعلى أى منهما ينزل أول ما ينزل . إنه مشتاق إليهما معا فيأليته يستطيع أن يلقاها معا ويستريح !
وها قد دنت المدينة وأوشك أن يدخلها ولم يفصل في هذه المسألة ويقضى فيها بقرار .. سَكينة أم عائشة ؟ . عائشة أجمل ولكن سَكينة أملح فياويح قلب ضاع بين الملاحه والجمال .

وأحس حينئذ برغبة خفية في أن ينهه شوقه قليلا ويؤخر دخول المدينة ما أمكن حتى ينتهى إلى قرار لا يندم عليه فيما بعد . وإنه ليعجب من نفسه

كيف يتهيب الفصل في هذا الأمر وهو المقدام الجسور الذي لا يتردد فيما يعرض له من شئون الحرب والقتال فيفصل فيه برأى قاطع ويقدم على تنفيذه بعزيمة لا تلين دون تهيب لما يسفر عنه من العواقب .

سكينة أولا أم عائشة ؟ إن بدأ بسكينة فماذا يقول لعائشة وإن بدأ بعائشة فماذا يقول لسكينة ؟ .. إن في وسعه أن يتفادى من هذا الحرج بأن ينزل عند إحدى زوجتيه الآخرين ، عند أمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كرز أو عند ابنة خالة الرباب بنت ريان بن أنيف . فسيجد عند هاتين ما يحب دون أن يخشى من إحداهما لوما أو تقريرا وإنهما لجميلتان أيضا وإنه لمشتاق إلى لقائهما كذلك ولكن المشكلة ستبقى قائمة بعد ذلك أبزور عائشة أم سكينة ؟

وإنه لفى حيرته هذه إذ دخل المدينة دون أن يشعر وانطلق به الجواد في شوارعها وأزقتها حتى وقف به تحت دار سكينة بنت الحسين . ورن صوت إحدى جواربها في الدار وهى تقول .. مولاتى . مولاتى هذا سيدى مصعب بن الزبير قد وصل !

ويل له أيجئ . إلينا هكذا فجأة دون أن يخطرنا أو يبعث إلينا رسولا ؟ انزلى إليه يا أئيمة وقل له ينتظر أسفل الدار حتى آذن له بالصعود . — فيم يا مولاتى ؟ لقد آثرنا على غيرنا بالقدوم علينا فلا يحق لك أن تعامليه هذه المعاملة .

— وملك إنما نزل عندنا ليلقانى بغبار سفره قبل أن أصلح حالى ثم يلقي ابنة طلحة غدا وقد اغتسل وتهايم وتهايمت له .

— أما إنك لتظلمينه يا مولاتي دائما ..

— اسكتي أنت .. ما يدريك . انزلي فقولي له ما قلت لك .

ونزلت الجارية لتخبر سيدها بما قالت سيدتها فوجدته بين خدمه ومواليه يقرمون بخدمته ويعدون له الحمام والثياب والطيب كما أمرهم . فقد رأى هو ألا يلقاها إلا بعد أن يزيل عنه غبار السفر ويستبدل بثيابه ثيابا جديدة . فرجعت إلى مولاتها وأخبرتها بما شهدت وقالت لها ألم أقل لك يا مولاتي إنك تظلمينه كثيرا .

قالت لها سكينه : انتظري حتى يفرغ من زينته فقولي له حينئذ أن ينتظر قليلا حتى آذن له بالصعود .

— ويحك يا مولاتي كنت كثيرة الشوق إليه حتى إذا جاءك تتدللين عليه . فهرتها سكينه قائلة : افعلى ما أمرتك ولا تراجعيني .

وانتظر مصعب طويلا وكلما استأذن للصعود قيل له انتظر، حتى ضاق صدره وفرغ صبره فصعد إليها ووقف بباب غرفتها فوجدها جالسة بين جواربها وقد فرغت من زينتها .

فعجب من أمرها وكان يظنها ما تزال تترين ، فافتحم الباب فلما رآته الجوارى انسللن من الحجرة وخرجن .

— مصعب ! أتجرؤ أن تدخل عندي قبل أن آذن لك ؟

— ويحك يا سكينه أفى الحق أن تدعيني أتحرق شوقا إليك وأنت

جالسة هنا تتحدثين إلى جواربك ؟

— كان عليك أن تبعث إلينا رسولا قبل قدومك .

— إنما قدمت لبضعة أيام ثم أعود إلى الكوفة .

— تعود إلى الكوفة ؟

— نعم لأنتهى من أمر المختار بن أبى عبيد .

— ألم تنته من أمره بعد ؟ لقد ظننت أنك قتلتَه واسترحت منه .

— لم أتمكن من قتله بعد ولكنى هزمتَه و فرقت رجاله .

— والله ما صنعت شيئا ما بقى المختار بن أبى عبيد . والله لبس زوج

الحرّة أنت .

— فيم يا سُكّين ؟

— تترك ميدان القتال لتسكن إلى حلائلك .

فدنا منها وضمها إلى صدره وهو يقول ...

فتملصت من يده وهى تقول ..

— أهذا قدرى عندك يا ابن الزبير أن تجعلنى سببا لتركك ميدان

القتال ؟

— من قال لك إننى تركته ؟ لقد لجأ الخبيث بعد انهزامه إلى دار

الإمارة بالكوفة فأحكمت عليه الحصار ولا سبيل أمامه إلا أن يموت أو

يستسلم . أفلا يحق لى ريثا يتم ذلك أن أجيء فاستروح أنفاس الأعبة ؟

وأهاجت هذه الكلمة شجون سكىنة وأثارت غيرتها وهمت أن تسأله

من الأعبة الذين يعينهم لولا أنها أشفقت أن يكون فى اعترافها بالغيرة من

ضرائرها ما ينقص من مقامها فأعرضت عن هذا الصدد وقالت :

— ما هكذا يصنع من يعشق معالى الأمور .

قال لها مداعبا :

— كيف يصنع إذن ؟

— لا يلتفت إلى قريب أو حبيب ولا يستنم لراحة أو دعة حتى يجهز على عدوه ويفرغ منه .

وحالا له أن يمضى فى دعابته فقال لها :

— إن أردت الحق يا ابنة الحسين فأنى لا أعتبر المختار بن أبى عبيد ذلك العدو الذى أحرص كل الحرص على قطع دابره .

— ماذا تقول ؟

— إن له يدا عندى لا أنساها له أبدا :

— ماذا تعنى ؟

— أعنى ما كان من تشيعه لآل بيتك ومطالبته بدم أبيك .

— لا تحاول أن تخدعنى . ما أنت إلا آلة فى يد أخيك أبى خبيب فلو أمرك بقتلى لفعلت .

— ويحك يا سكين . أما تكفين أبدا عن تنديدك بأخى عبد الله بن

الزبير وبغضك إياه ؟

— لا أستطيع أن أنسى أبدا أنه هو الذى دفع أبى إلى الخروج وحرضه عليه ، وهو يعلم ما هو صائر إليه ليخلو له الجو فى مكة .

— سبحان الله . أتحملين أخى تبعة أبيك ؟ ألم يكن على أبيك أن ينظر

إلى نفسه ؟ وهل كان لعبد الله سلطان عليه ؟ لقد نصحه الكثيرون ألا يخرج إلى أهل العراق ولا يعتمد عليهم فما انتصح لأحد . ولقد صمم هو على

ذلك وما شجعه عبد الله إلا لأنه يأبى الضيم مثله فوافقه على رأيه حينما خالفه الآخرون .. أفأسفة أنت يا سكين على أن لقي أبوك تلك الميتة المجيدة الرائعة؟ وتأثرت سكينه لذكرى أبيها الشهيد فتلاً الدمع في عينها ولكنها تجلدت وقالت : كلا لست أسفة لأمر قد جرت به المقادير ولكنك حاولت أن تخدعنى فى أمر هذا المنافق المختار بن أبى عبيد .

فطفق يذكر لها أنه وهو يقاتل المختار أحس حقاً برقة تعطفه عليه من أجل انتصاره للحسين أبيها وسعيه للقضاء على قتلته ، ثم قال لها :
— أو ما تشعرين أنت يا سكين بشيء من العطف عليه ؟

ولم تكذ تسمع هذا منه حتى نضبت من وجهها معانى الرقة والرائاء وحل محلها الجد والصرامة ، وصاحت :

لا والله ولا خردلة . إن دم الحسين لا ينبغي أن يطالب به رجل منافق مثله اتخذ من قضية الحسين سبباً لبلوغ ما يصبو إليه من أخذ الحكم لنفسه ، ثم أضاف إلى نفاقه الكفر بالله وادعاء الوحى ، فقد والله أضعف قضية الحسين . ولقد كان ناصبياً من قبل يكره أهل البيت ثم تصنع حبهم من أجل مآربه الخسيسة .

— صدقت والله يا سكين . لأقاتلنه منذ اليوم قتال من لا يرحمه ولا يرفق به من أجلك ؟
— من أجلى ؟

— نعم . وجذبها إلى صدره ليعانقها فانفلتت عنه وهى تقول : فما بقاؤك ؟ انطلق فعد إليه .

— دعيني أقضى هذا اليوم عندك يا حبيبة القلب .
— لا والله . لا مكان لك عندي حتى تفرغ من عدو الله وتقتله .
— أشتى أن أتزود منك قبل أن أنطلق إليه فلا أعود إليك إلا برأسه
فأجابه قائلة في صرامة : هيهات . لا شيء لك عندي حتى تعود بعد
أن تقتله .

— أى حبيبتى إن دلالك حبيب إلى نفسى . ولكنك أسرفت فيه حتى
ضاق به صدرى . فبالله ألا ما اقتصدت .
فثارت ثائرتها عندئذ وقالت إن كنت تظن هذا دلالا منى فقد
أخطأت . ماذا دهاك يا ابن الزبير حتى عدت لا تفرق بين الجدل
والدلال ؟

فنظر إليها مليا ثم قال :
— إذن أذهب إلى ضربتك عائشة بنت طلحة .
فصاحت مغضبة .
— اذهب إليها فإنها بك أشبه .
— هى خير منك .
— لا غرو أن تكون أجمل منى فى عينك لأنها أشبه بك . ماذا تنتظر ؟
انطلق إليها الساعة فإنها تنتظرك .

فأخذ مصعب يتودد إليها ويترضاها قائلا : كلا والله ما هى بأفضل
منك . قد تكون أجمل فيما يرى الناس ولكنها ليست بأملح منك يا
سكينة يا أحسن خلق الله .

صدقيني يا سكين .. هذه الجمعة وحدها عندى بألف عائشة !
وتهلل وجه سكينه عند ذكر الجمعة التى اشتهرت بها ، فأخذت بسمه
صغيرة ننداح حول شفتيها مما شجع مصعبا على الاسترسال فى الحديث ،
فطفق يقص عليها كيف أرادت عائشة ذات يوم أن تقلدها فى جمعتها فلم
تفلح . فأخذت تسبها وتقول : وددت لو تقص جمه سكينه وأعتق جميع
إمائى !

فلم تستطع سكينه أن تغالب ضحكها فاستضحكت حتى بدت
ثناياها الغر . فتشجع مصعب ومد يده إلى شعر رأسها فأخذ يجليها فى
خصلاته فى رقة وحنان . فلما رآها استنامت له تشجع مرة أخرى
فاسترق منها قبلة ولكنه لم يكذب يفعل ذلك حتى استردت سكينه نفسها
فدفعته عنها وهى تقول :

— إياك أن تظن إنك خدعتنى . ارجع إلى حيث كنت فافرج من عدو
الله ثم عد إلى . أو أذهب الساعة إلى عائشة ثم لا تعد إلئى أبدا .

وخرج مصعب غاضبا من دارها وتردد قليلا فى الطريق . أذهب إلى
عائشة بنت طلحة أم إلى إحدى زوجتيه الأخريين ؟ الغضب والشوق
يدفعانه إلى دار عائشة . ولكن هاجسا فى ضميره ينذره ألا يفعل لئلا يلقي
منها مثل ما لقي من سكينه . غير أنه لم يستطع مغالبة شوقه إلى عائشة ولا
رغبته فى إغاطة تلك التى آثرها بالنزول عندها فردته كسيرا .

ولم يكذب يدخل دار عائشة حتى استقبلته مرحبة باسمه ووجدتها قد
ازينت كأنما كانت فى انتظاره ، ووجد كل شئ فى الدار مهيا لاستقباله
(الفارس الجميل)

فعجب من ذلك وتوجس خيفة ، ولكن ما لقيه من حسن استقبالها قد أعاد الطمأنينة إلى نفسه ، فاندفع يعانقها ويقبلها وهي تستسلم له وتبتسم .. فلما قضيا حق اللقاء الأول دعتة إلى مجلسها فسألته هل فرغ من قتال عدوه المختار بن أوى عبید ؟

فلما أخبرها إنه لجأ بعد هزيمته إلى دار الإمارة حيث تحصن بها وحيث ضرب هو عليه الحصار ، قالت له : كيف تركته قبل أن تفرغ من أمره ! — أردت أن أتزود منك ومن حسنك يا عائش .

— هلا تزودت من ذات الجمة ؟

وتردد قليلا في جوابها فقد أحس من لحن قولها أنها ربما علمت بما كان من نزوله عند سكينة وإنها تعاقبه على ذلك ، فقال لها :

— أليس من حفى أن أوثر من أشياء على من أشياء ؟

قالت : بلى إن ذلك من حقلك ولكن من من نساءك آثرت يا مصعب ؟

— قد علمت إننى آثرتك أنت يا عائشة .

— كذبت .. ما جئتني إلا لما طردتك هي من بيتها .

— إنما عرجت عليها مسلما ولم أقصد أن أقيم إلا عندك .

— ويلك أتحسبنى لا تأتيني أخبارك !

— من أخبرك ؟

— لا شأن لك .

فلبث هنيهة في حيرة لا يدرى ماذا يقول ثم تمتم قائلا ..

— والله ما أحسبكما إلا تواطأتما على !

— على أى شىء تواطأنا ؟

— على ألا تقبلانى حتى أفرغ من المختار بن أبى عبيد .

— ويحك يا مغرور ! كيف نتواطأ وكلتانا لا تقبل الأخرى ؟ ولكنك

أخلفت ظن كل منا .

— كيف يا منية النفس ؟

— كنا نظن أنك تعشق معالى الأمور . فإذا أنت زئر نساء لا تطمح

نفسك إلى أبعد من شهواتك .

فتمللم مصعب ضجرا وقال :

— ويلى منكما .. أنت أيضا تذكرين معالى الأمور !

فصاحت به مغضبة : ويلك ماذا تظننى ؟ تذكر يا مصعب أننى ابنة

طلحة بن عبيد الله .

فقال لها معتذرا : ويحك إني ما ذكرت شيئا عن أبيك .

— لست ابنة طلحة بن عبيد الله إن قبلتك عندى وقد طردتك ذات

الجمعة من بيتها .

وأدرك مصعب بعد لأى أنها لن تقبله أبدا ، فخرج من عندها كالشريد

وقد تضاعف همه وغضبه ، فانطلق إلى بيت زينب ابنة ريان بن أتيّف

فقلقته بالبشاشة وأكرّمته وواسته .

— الحمد لله الذى أرضاك عنا يا مصعب .

— يا ابنة الحال ما يعدل قلبى بك بدىلا . أنت والله نعم الزوج

الودود .

ويتشقق الحديث بينهما فتقول له : يا ابن العمة إنك لن تجد مثلي حبا . لك وعظفا عليك . ما من واحدة من نسائك إلا تزوجتك لغرض في نفسها ما خلاى . سَكِينَة تزوجتك لتثأر لأبيها من أعدائه الذين قتلوه ، وعائشة بنت طلحة أجمل نساء عصرها إنما تزوجتك لتباهى النساء بجمالك وفضلك ولو وجدت أجمل منك وأفضل لما رضيت بك . أما التى تحبك لذاتك يا مصعب فهى أنا ولا أحد غيرى . والله يا مصعب لو قد شوه الله وجهك أو قطع في الحرب أطرافك ما تغير حبي لك .

وكان مصعب قد عزم أن يقضى بقية الليل عند زينب وألا يظهر لأصحابه إلا في صباح اليوم التالى ، غير أنه اشتاق آخر الليل إلى لقاء صديقه الأحنف بن قيس فهم أن يرسل في طلبه ، ولكنه خشى أن يزعجه ذلك فقرر أن يذهب إليه بنفسه . فلما رأته زينب يريد الخروج وقع في نفسها أنه ربما يريد الذهاب إلى إحدى زوجاته فلم تقل له شيئا ، بل ساعدته على ارتداء ملابسه . وأحس هو بما يدور في خلدها فأكد لها أنه ذاهب إلى أحنف بن قيس فقالت له حينئذ : هلا زرتة في الصباح فإنه لا بد الآن نائم ؟

فأجابها بأنه لا يستطيع الصبر عنه ، وأنه يعرف من عادة الأحنف أنه ينام أول الليل ويتجد آخره .

وخرج متوشحا سيفه حتى أتى بيت الأحنف فطرق بابه ، فوجده قائما يتجد ، ودعاه إلى الجلوس وأخذ يسأله عن أحوال الكوفة وأخبار المختار بن

أبى عبيد ، فحدثه مصعب عن كل ذلك بإسهاب ، فلما انتهى من ذلك طفق يقص عليه ما كان من سكيئة وعائشة معه .

فتبسم الأحنف ضاحكا وقال : ويلك يا ابن الزبير ، ما أراك جئتني في آخر الليل إلا لتقص على أخبارك مع نسائك .

— أجل يا أبا يحر فإني منهن في حيرة وكبد . وأنت خير من يرشدني في هذا السبيل .

وسكت الأحنف قليلا ، ثم أخذ في الحديث فإذا هو يشرح له من أسرار المرأة عجبا ، ويكشف له دخيلة كل واحدة منهن . فأما سكيئة فإنها تعلم أن غريمها أجمل منها وأنها لا تستطيع منافستها في قلبك ، ولا تصدق أبدا أنك تؤثرها عليها . فلما قدمت عليها ظنت أنك بدأت بها لتختم بعائشة بعد أن تكون قد أزلت عنك غبار السفر ، وتكون هي قد تهيأت لك بما يصلحها من الزينة . فرأت أن تتخذ من قضية أيها الحسين وحرصها على أن تثار له من أعدائه وقتلته ، سببا تدارى به حقيقة ما بنفسها .

وأما عائشة : فلو توجهت إليها بادية ذى بدء لما ردتك ، ولكنها حذرت أنك ذهبت إلى ضرئها فاستنكفت أن تقبلك من حيث ردتك غريمها فتكون أهون عندك منها .

قال مصعب : لكن كيف حذرت ذلك وقد حرصت على ألا يعلم بقدمي أحد ؟

قال الأحنف : إن ذلك عليها ليسير ، فقد كنت تحمل في وجهك وبين

عينيك دلائل اتهامك . وإن المرأة تدرك بغريزتها في هذه الشؤون ما لا يدرك الرجل .

— لكنها زعمت لي أن أحدا أخبرها بذلك ، وهذا ما حيرني .
— إنما زعمت ذلك لتستدرجك إلى الإقرار بالحقيقة ، وقد فعلت .
قال مصعب : إن يكن ما تقول حقا فقد خدعتني الخبيثة وغلبتني .
قال الأحنف : ويلمك بطلا يا مصعب ، لو لم تغلبك رقتك هذه للنساء ، إذن لسقت الناس جميعا بعصاك .

— هيهات يا أبا بحر . ذاك أخى عبد الله أمير المؤمنين .
— كلا يا مصعب . أخوك يعوزه كثير مما عندك . ليس له محياك هذا الذى يشبه وجه ملك كريم ، وليس له كرمك الفياض الذى لا يزيده غناك ولا ينقصه فقرك ، ولا تميز فيه بين عدو وصديق ، ولا بين غنى وفقير . أنت يا مصعب لا عيب فيك إلا أنك زئير نساء .
ثم أخذ الأحنف يلومه على تركه الكوفة وفيها عدوه لم يفرغ منه ، وقدومه البصرة لغير شيء إلا أن يلقى نساءه ، ومن وراء ذلك كله العدو الأكبر عبد الملك بن مروان بالشام . قال مصعب : دع عنك عبد الملك فما بقيت على العراق لن يتصدى لي بأى مكروه .
— لا يفرنك يا مصعب سكوته عنك حتى اليوم ، فإنما يشغله عنك الآن أمر ابن عمه ومنافسه عمرو بن الأشدق . ولئن فرغ منه وسيفرغ منه وشيكاً ، ليأتين إليك ولينازلنك .
— ما إخاله راغباً في قتالي يا أبا بحر .

— لكان الصداقة القديمة التي بينكما ؟

— نعم .

— ويحك يا ابن الزبير . إنك لا تعرف عبد الملك .

وانتهى الحديث بينهما بأن أشار عليه الأحنف أن يرجع إلى الكوفة في الحال ويستصحب معه إحدى زوجاته ، حتى لا تنازعه نفسه إلى ترك الكوفة قبل أن يقضى على عدوه المختار بن أبى عبيد .

وعمل مصعب بمشورة صديقه الأحنف ، فرجع إلى الكوفة مستصحبا معه زوجته زينب وأمة الحميد ، وقد قصد بذلك أن يؤدب سكيئة وعائشة فيما لقيتهما ذلك اللقاء غير الجميل .

وشدد الحصار على المختار بن أبى عبيد فلم يدع شيئا يتسرب إليه من قريب أو من بعيد ، وأمر رجاله فتعقبوا فلول أصحابه في كل مكان . ولكن دار الإمارة التى تحصن فيها المختار وأصحابه كانت منيعة الجانب إذ تقع في مرتفع من الأرض ، تحوطها الأسوار العالية من كل ناحية ، وعليها الحصون والأكوات التى يصعب الدنو منها أو اقتحامها ، فلم يكن لمصعب بد من الانتظار حتى ينفد ما فيها من المؤن والذخائر فيخرج من فيها مستسلمين .

وقد اقتضى ذلك منه أربعة أشهر أبدى في خلالها مصعب من الصبر والشجاعة آيات . حتى لقد غامر ذات ليلة فأراد أن يتسلق الأسوار في جماعة من رجاله ، ولكن رجال المختار فطنوا لهم فامطروهم بالسهم وألقوا عليهم الحجارة ، فقتل منهم من قتل وأصيب من أصيب وكان

نصيب مصعب من ذلك شجة في رأسه من حجر ألقى عليه .
ولامه وجوه أصحابه على ما كان من تهوره ، وشددوا عليه في
ألا يعاود مثل هذا السبيل . وقالوا له إننا في السعة وهم في الضيق ، فأى
شيء يحملنا على نفاذ الصبر والضيق بالمطاوله ؟

ونزل مصعب على رأيهم ولكن على مضض ، فقد ضاق صدره من
طول الحصار ، والوقوف دون الأسوار لا يستطيع أن ينال ممن خلفها
شيئا . وكلما تذكر سكينه وعائشة هاجت شجونه واشتد حنينه ،
ولجت به الرغبة في أن ينتهى من أمر المختار بأى سبيل وفي أسرع وقت .
لقد قصد أن يؤدبهما حين استصحب معه زوجته الآخرين ليستغنى
بهما عنهما ، ولكنه لم يلبث حين تمادى به الحال أن شعر أنه إنما كان يؤدب
نفسه بابتعاده عنهما كل هذا الأمد الطويل .

ولقد هم غير مرة أن ينطلق إلى البصرة من شدة شوقه إليهما ، لولا
خشيته أن يلقي منهما مثل ما لقي في المرة الأولى ، وخوفه كذلك من
عتاب صديقه الأحنف بن قيس . .

وضاق الحال بالمختار لما انقضت أربعة أشهر على حصاره ، ونفدت
المؤن التي عنده ، فأقدم على مغامرة جريئة أذهلت أصحابه وأصحاب
مصعب جميعا . ذلك أنه خرج وحده من الحصن متسللا في الليل حتى
أقبل على أصحاب مصعب المحاصرين لدار الإمارة ، فأعلن لهم نفسه وقال
لهم : قودوني إلى أميركم لأتحدث إليه . فهم بعضهم بقتله لولا أن صاح
فيهم : ويلكم إني جئت وحدي مستأمنا فلا تقتلوني حتى تروا رأي

أميركم ، إن كان له عندكم قدر ومكانة ؟
فلما جرى به إلى مصعب أحسن مصعب لقاءه ، وأمر رجاله أن
يدعوهما وحدهما ، فأشفقوا أن يكون جاء لاغتيال صاحبهم فجردوه من
سيفه ، ولكن مصعبا نهرهم وقال لهم :

— ردوا سيفه إليه ودعوني وحدي معه .

فلما اختليا قال المختار :

— إن أصحابك لا يعرفون مروءتك يا مصعب ، ولا يقدرونك حق
قدرك .

قال مصعب :

— بلى ولكنهم حرصاء على فلا لوم عليهم . فقل لي ماذا تريد ؟
— جئت أعرض عليك أحد أمرين : الأول أن تتركني وأصحابي
فنمضي جهة الشام لنقاتل أعداءكم آل مروان .
— كلا يا ابن أبي عبيد ، ما يكون لي أن أحاصرك أربعة أشهر حتى
إذا نفدت المhone من عندك ، أطلق سراحك لتمضي حيث تشاء .
— أعاهدك لأقاتلن آل مروان فأشغلهم عنك .

— ليس بيني وبين آل مروان شيء حتى اليوم . ولكن قاتلتهم فلن
أستعين عليهم بعدوى ؟

— إذن فأني أعرض عليك الأمر الثاني .

— ما هو ؟

— أن تبارزني بالسيف ، فأما قتلتي وإما قتلتك .

فقهه مصعب ضاحكا .

— ما يضحك ؟

— إنك قدرت في نفسك أننى شجاع ، وأن أريحيتمى تمنعنى من رفض طلبك هذا خشية أن أجبن . ولكن فاتك أننى لا أبارز رجلا قد يئس من الحياة فلا يبالى أيقتل أم يقتل .

— إذن فقد جئت عن لقاءى .

— إنك تعلم أننى لست كذلك ، وأنك تعلم أيضا أن أحدا لا يمكن

أن ينسب إلى الجبن .

ولو دعوتنى إلى المبارزة من قبل لأجبتك .

— إذن فاقتلى الساعة .

ولم يكد المختار يتفوه بهذه الكلمة حتى وثب مصعب فى سرعة البرق فانزع سيف المختار من يده . فامتقع وجه المختار وقال له : ما حملك على هذا يا مصعب ؟

فصفق مصعب وهو يقول : كنت أظنك أكرم من هذا . لقد أردت أن تغدر بى يا لكع ؟

وأقبل رجال مصعب لما سمعوا تصفيقه فقال لهم : خذوا هذا الغدار فأوصلوه إلى مأمنه .

فطفق المختار يحلف بالله ما نوى شيئا مما ظنه به .

فقال مصعب : وهل لك يمين يا كافر ؟ خذوه فأوصلوه إلى مأمنه . قالوا : دعنا نقتله أيها الأمير .

— لا والله لا أغدر كما تفعل الأعاجم .

— إنه قد أراد أن يغدر بك .

— ذاك شأنه هو لا شأنى . اغربوا به من وجهى .

* * *

وما راع الناس فى اليوم التالى إلا أن خرج المختار مستبسلا فى نفر من أصحابه ، فقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير حتى قتلوا .

وجيء بجثة المختار إلى مصعب فأمر بقطع رأسه وكفه . أما الرأس فبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، وأما الكف فأمر بصليها على باب مسجد الكوفة .

ولم يستطع مصعب أن يصبر حتى يرى ما يكون من أصحاب المختار الفارين منهم والمستخفين ، إذ وكل ذلك إلى أصحابه وانطلق هو على الفور إلى البصرة ليلقى حبيبته .

ولم يتردد فى هذه المرة ، فقد صمم على أن ينزل أولا بدار عائشة بنت طلحة ، فأرسل إليها رسولا يخبرها بقدمه .

واستشارت عائشة مولاتها فيما تفعل بمصعب ، فأشارت عليها بأن تحسن لقاءه فى هذه المرة وتهئه بالفتح ، حتى لا يتحول إلى دار سكينه بنت الحسين .

فقالت عائشة : أجل والله لأبالغن فى الحفاوة به ، ولأعظن ذات الجملة .

ولم يكد مصعب يدخل الدار ، حتى استقبلته عائشة بزيتها وجواربها وهى تهلل بشرا وتقول : مرحبا بك يا سيد شباب العرب .

ثم قادتة إلى مخدعها فأخذت تقبله وتمسح التراب عن وجهه .
قال لها : أمهليني يا عائشة حتى أغتسل وأتطهر ، فأني أشفق عليك
من رائحة الحديد .

قالت : هو والله عندى أطيب من ريح المسك .
وقضى مصعب يومين عندها لم تدع له فرصة خلاهما ليقابل أحدا
من أصحابه ، فقد كانت تريه من زيتتها فتونا ومن رقتها ودلاها فتونا ،
حتى إنها لبست له ثلاثين حلة كلما خلعت واحدة لبست الأخرى .
فلما كان اليوم الثالث أراد أن يخرج إلى أصحابه ، فقالت له : كلا
والله لا تخرج اليوم من الدار أبدا . ولكن ادع من تشاء من أصحابك
فليحضروا مجلسك هنا ، فأني دعوت عزة الميلاء لتغنى لنا وتطربنا .
ودعت هي طائفة مختارة من نسوة قريش ، فلما حضرن خلعت على
كل واحدة منهن خلة تامة من الوشى والخز ، وأجلستهن في مجلس قد
نسقت فيه الرياحين والأزهار ، وصفت على موائده أطباق الفواكه ،
وعبقت فيه مجامر العود والند .

وكذلك فعلت في مجلس الرجال الذى يحاذيه ، والذى تفصل بينه
وبين مجلس النساء الستور والحجب . وقد دعا مصعب جماعة من
أصدقائه وأصفيائه فجلسوا معه في أنس وصفاء ، وتذاكروا معه مختلف
شئون الدولة وشئون الناس ، والساقى يدور عليهم بأكواب الأشرية من
ورد ورمال وتفاح . ثم مد الخوان بالشواء وألوان الأطعمة ، فأكلوا هنيئا
مريئا .

فلما فرغوا من ذلك سمعوا من جانب النساء رنات المزاهر والعيان

وصوت عزة الميلاء يتغنى في شعر امرئ القيس ، حتى إذ وصلت إلى قوله :

وثغر أغر شتيت النبات لذيد المقبل والمبتم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضى عليك الحكم
استخف مصعبا الطرب ، فوثب إلى حيث دنا من جانب الستور
المسبلة فصاح : يا هذه إنا قد ذقناه فوجدناه كما وصفت .

ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم : ماذا ترون يا قوم لو دعوت لكم عزة الميلاء فغنتكم هنا بين أيديكم ؟

فاستحسن ذلك قوم وتخرج آخرون ، فلم يبال بهم مصعب ودخل إلى عائشة فقال لها : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك من النسوة ، وأما عزة فتأذبن لها أن تدخل إلينا فتغنيننا .
قالت عائشة : حبا وكرامة يا مصعب .

ولم تلبث عزة أن دخلت إلى القوم ومعها فرقتهما وقد ارتدت حلة فاخرة من الوشي والحرير كستها إياها عائشة ، فوقفت في صدر المجلس وأخذت تداعب عودها وتصاحبها فرقتهما بالمزهر والدف ، حتى إذا استوى لمن اللحن ترنم فمها بصوت يسيل عذوبة ورقة وهي تقول :
إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جيروت منه ولا كبرياء
فطرب القوم طربا شديدا وصاحوا جميعا : أحسنت يا عزة ..
بوركت يا عزة .

وكان هدف عائشة من هذا كله أن توغر صدر غريمها سكينه ،

وتدفعها إلى مغاضبة مصعب إذا ذهب إليها . ولكن سكينه لم تشأ أن تمكنها من بلوغ هدفها ، فقد استقبلت مصعبا خيرا استقبال ، وأرته من ضروب الرعاية ما لم ير منها قبل ذلك قط .

حتى لقد عجب هو نفسه من ذلك . ولقد أقبل إليها حين أقبل ، وهو يزور في نفسه كلاما يعتذر به إليها ، إذا حاسبته إثارة عائشة بالنزول عندها في هذه المرة . فإذا هي تتطلق له دون أن تشير إلى ما فعلته عائشة من قريب أو من بعيد ، كأن شيئا من ذلك لم يكن .

وقضى ثلاثة أيام عندها لم يشعر بمبرورها ، من فرط ما كانت تحوطه به من جميل الرعاية ورقة الحديث ، وننون ألثجب والتعطف . وقد اقتصرت في هذه المدة على ثلاث حلل ، فحلة في الصباح وحلة بعد الظهر وحلة عند النوم . ولكنها كانت تفتن في تصفيف شعرها افتنانا ، يضيء عليها فتنة تتجدد في عينيه كل ساعة من ساعات النهار .

وكانت بارعة الحديث تتصرف في فنونه تصرف الخبير ، دون أن ينفد محصولها من شعر مختار تنشده ، وقصة تحكيها ، ونادرة ترويها في فصاحة ناصعة ، وبيان عذب لا يمل سامعه أبدا .

فلما كان اليوم الرابع قالت له : يا مصعب إني قد قضيت مالك من حق علي ، فاقض اليوم ما لنفسك من حق عليك .

— ماذا تعنين يا سكينه ؟

— إنك قد فرغت من عدوك المختار بن أبي عبيد ، فامض الآن لقتال عبد الملك بن مروان ، فإنه هو الهدف .

فوعدها خيرا وقال لها : سيتم ذلك بإذن الله في حينه .
ولم يكن في قرارة نفسه يعنى ما يقول ، فقد كان لا يتصور أبدا كيف
يحارب عبد الملك بن مروان صديقه القديم الحميم .
قالت : إذا أخرت ذلك فسيقوى عليك . إنك اليوم منتصرون رجالك
منتصرون ، وحكمك نافذ على الجميع ، فامض بهم اليوم صوب الشام
لقتال عبد الملك ، قبل أن تتراخى قبضتك عليهم إذا تركتهم ويعودوا
للخلاف عليك والتفرق ، فإنهم أهل العراق .
وكانت قد استدعت الأحنف بن قيس إلى دارها ، فلما حضر أيدها
في رأيها وحث مصعبا عليه . وزاد على ذلك أن أوصاه بأن يكتب إلى أخيه
عبد الله لينجده بجيش من عنده يلتقى به في الطريق .
ولكن مصعبا لم يقتنع بهذا الرأي ، وأصر على أن يقدم على أخيه أولا
بمكة ليستشيره في الأمر ، وكان غرضه في الحقيقة من ذلك أن يلتمس أى
مخرج من مواجهة عبد الملك بن مروان بالحرب .
قال الأحنف : إن كنت تعزم السفر إلى أخيك فعجل به .
ثم اقترح عليه أن يستقر بالكوفة ، ويأخذ زوجته سكينه وعائشة إليها
حتى يستطيع التفرغ لما هو بسبيله .
قال مصعب : ما إخالهما ترضيان بذلك .
قالت سكينه : بل أَرْضِي يا مصعب . والله لو دعوتني لمصاحبتك إلى
الشام في قتال عبد الملك لفعلت .

وارتحل مصعب بزوجتيه إلى الكوفة ، ثم لحق به الأحنف بعد ذلك .
 وكان في نية مصعب أن يعجل بالسفر إلى مكة للقاء أخيه وعرض الأمور
 عليه ، لولا أن واجهته أول ما قدم الكوفة ، مشكلة أصحاب المختار .
 فإنهم لما سمعوا بمقتل صاحبهم ضاق بهم الأمر ، ولم يجدوا لهم مأمناً إلا أن
 يتوافدوا إلى الكوفة ليستسلموا لمصعب وينضموا إليه ، عسى أن يقبلهم
 ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان

قالوا لمصعب : لا تقتلنا واجعلنا في مقدمة جيشك لقتال عبد الملك ،
 فإن ظفرنا فلکم ، وإن قتلنا لا نقتل حتى نقتل منهم طائفة وكان الذي
 تريد .

فرق لهم وكاد يجيبهم إلى ما طلبوا ، لولا أن جماعة من كبار أصحابه
 ينزعهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أبوا ذلك وقالوا : هؤلاء قد
 قتلوا أولادنا وعشائرتنا وجرحوا منا خلقاً ، فاخترنا أو اخترهم . فحار
 مصعب ماذا يفعل . وأشار عليه الأحنف بن قيس ألا يصغى إلى هؤلاء ،
 وأن يقبل التائبين من أصحاب المختار فإنهم يكرهون آل مروان ويتحرقون
 لقتالهم وسيكونون قوة له .

قال مصعب : لكن أصحابي سيتخلون عني إذا فعلت .



(الفارس الجميل)

واشتد إلحاح أصحابه عليه في وجوب قتل أصحاب المختار ، حتى ضاق بهم صدره فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم .

وخشى هؤلاء أن يرجع مصعب في قوله ، فانطلقوا في الحال فذبخوا من أصحاب المختار ثلاثة آلاف رجل في يوم واحد ، وكانت مذبحة اشماز لها مصعب لما بلغته ، وأخذ يلوم أصحابه ويعنفهم ولكن بعد فوات الأوان .

وطفق الأحنف يلومه ويقول له : إنك بما فعلت قد أفسدت أصحابك هؤلاء عليك ، وشجعتهم على مخالفتك والاستقلال برأيهم دونك . إن هؤلاء أهل العراق لا يصلحون إلا بالشدة والحزم ، ويفسد هم اللين والمراعاة .

فاسترجع مصعب وقال : دعني من لومك الآن يا أبا بحر ، فقد نفذ المقدور ولا سبيل إلى رد ما وقع .

ولم يكد مصعب يفيق من هول هذه الحادثة حتى واجهته مشكلة أخرى ، حينما جيئ إليه بزوجتي المختار بن أبي عبيد « أم ثابت بنت سمرة ابن جندب ، وعمرة بنت النعمان بن بشير » فقيل له : يجب أن تستيهما فإن تابتا وأعلنا البراءة منه أطلقتهما ، وإلا قضيت عليهما بالقتل .

فسأل مصعب الأولى عن رأيها في المختار فقالت : ماذا تقول فيه أنت أيها الأمير ؟ .

— أقول إنه كافر ملحد .

— قالت : فإني أقول فيه بقولك أنت .

فأطلق سراحها .

ثم سأل الثانية عنه فقالت : يرحمه الله . لقد كان عبدا لله صالحا .
— وملك أما تعلمين أنه كافر ؟ .

— أصلحك الله أيها الأمير ، والله لو علمت أنه كافر ما أقمت عنده
يوما واحدا .

— يا هذه ألا قلت كما قالت ضررتك فيه فأطلق سراحك ؟ .

— أيها الأمير لعلها قالت لك ذلك فيه ، طمعا منها أن تتزوجها
أنت ؟ .

فضحك مصعب وقال لها مداعبا :

— وأنت أليس لك في ذلك ؟ .

— لا والله ، لا أتزوج قاتل زوجي أبدا .

فحار مصعب في أمرها ، وأراد أن يكتب إلى أخيه عبد الله ليستفتيه
فيه ، ولكن أصحابه ثاروا عليه وقالوا له : يجب قتلها أسوة بأصحاب
المختار الآخرين .

قال لهم : إنها امرأة وفية لزوجها ، ولا ينبغي لها أن تقول فيه غير ما
قالت .

قالوا له : لعلك أعجبتك جمالها فأردت أن تستبقها ، فإنك — ما
علمنا — زئر نساء .

فنهزم غاضبا وقال لهم : قبحكم الله من قوم سوء .. ويلكم أترون
جديرا بى أن أقتل النساء ؟ . اغربوا عن وجهى .

فانفضوا من عنده وهم يقولون : والله لنكتبن إلى أخيك أمير المؤمنين

في شأنها .

فسأل مصعب عمرة عن أهلها فقالت له : إنهم بالحيرة .
فأمر بأن تحمل إلى أهلها هناك ريثما يأتيه جواب أخيه عبد الله في أمرها
فينفذه .

ولكن الشرطة الذين انتدبهم لمرافقتها قتلوها في الطريق بين الكوفة
والحيرة . فلما بلغ مصعبا ذلك ثار وغضب وتوعد القتل بالعقاب ، لولا
أن جاء جواب من عبد الله بن الزبير يأمره بقتلها ، إذا أصرت على رفضها
أن تبرأ من زوجها الكافر . فما كان من مصعب إلا أن سكت عنهم .
بيد أن الأثر الذي تركته هذه الحادثة في مصعب كان عميقا جدا ، فلم
يستطع أن يطرد من ذهنه خيال عمرة وهي مضرجة بدمائها في الأرض
القفر ، ولا من سمعه صدى أبيات ابن أبي ربيعة التي سارت بها الركبان
وانتشرت في كل مكان :

إن من أكبر الكبائر عندى قتل حسناء حرة عطبول
قتلت باطلا على غير ذنب إن لله درها من قتيل
كتب القتل والقتال علينا وعلى الغايات جر الذبول

وضاق مصعب بمقامه في الكوفة ، وأراد أن يرتحل إلى أخيه لعله يجد
في الرحلة فرجا من الكرب الذى هو فيه . ولكنه ينتظر قدوم إبراهيم بن
الأشتر الذى كتب إليه بأنه قادم ، ولم تطوع له نفسه مغادرة الكوفة قبل
أن يقدم إبراهيم ، فيعهد إليه بمراقبة شئون الحكم في أيام غيبته بالحجاز ،
إذ كان لا يثق بأحد ثقته بإبراهيم . وكان مصعب معجبا بإبراهيم بن الأشتر

منذ كان ابن الأشتر خصما له يقاتله مع عدوه المختار بن أبى عبيد ، كما كان ابن الأشتر معجبا بمصعب كذلك ، يكبر أحدهما الآخر لشهامته وفروسيته .

وكان ابن الأشتر متحمسا للمختار ، لما أظهره من التشيع لآل البيت والمطالبة بدمائهم وإعادة الحقوق إليهم ، ودعوته في ذلك إلى محمد بن الحنفية . وظل كذلك إلى أن تبين له كذب المختار فيما ادعى من كتاب محمد بن الحنفية إليه ، ذلك الكتاب الذى زوره المختار عليه ، فنبأ منه حينئذ وتغلى عنه .

وكانت الحرب سجالا بين المختار ومصعب ، فما راع مصعبا ذات يوم إلا ابن الأشتر يقبل عليه وحده والسيف مشهور في يده ، فحاول رجال مصعب أن يمنعوه فقال لهم مصعب : دعوه .

فلما دنا منه أغمد سيفه فتعانقا عناقا حارا جعل القوم يتعجبون له أشد العجب ، ثم اختليا في مجلس وتطارحا الحديث كأنهما صديقان حميمان .

قال ابن الأشتر :

— والله يا مصعب لو أردت قتلك لحاولت ذلك ولربما نجحت فيه ، ولكن نفسى لم تطاوعنى على أن أقتل رجلا مثلك جمع الله له جمال الخلق وكال الخلق . والله يا مصعب إني لأحبك وأعجب بك وأرى أن الدنيا سيقبح وجه الحياة فيها إذا خلت من وجهك .

وأجابه مصعب قائلا : وأنا والله أحبك وأقدرك يا إبراهيم ، ولقد حاولت جهدى أن ألقاك لأقتلك فأكون قتلت أشجع فارس في العرب ،

ولكنى لم أسلط عليك . والله ما يعدل رغبتى فى قتلك إلا سرورى
بنجاتك ، لعلك تنقلب خليلا لى فتقاتل معى هذا المنافق عدو الله المختار
بن أبى عبيد .
قال ابن الأشر :

— إن ذلك ليسرنى يا مصعب ، ولقد تبينت كذب المختار ونفاقه
فتبرأت إلى الله منه ، ولكن مروءتى تمنعنى أن أقاتله معك اليوم وقد قاتلتك
معه أمس ، فأمهلتى يا مصعب حتى تفرغ أنت منه وحينئذ فادعنى
فستجدنى ورجالى طوع أمرك .
— أين تمضى يا إبراهيم ؟ .

— سأمضى أنا ورجالى إلى جهة الموصل ، حيث كنت عاملا
للمختار هناك .
فقبل مصعب منه ذلك وركب معه يودعه بنفسه ، حتى أوصله إلى
مأمنه .

فلما اعتزم اليوم مصعب أن يسير إلى الحجاز ، ألح فى طلب ابن الأشر
فكتب إليه يستقدمه ويستنجزه وعده ، فلبى ابن الأشر دعوته وقدم إليه
مع رجاله بالكوفة ، فسر بهم مصعب وأكرمهم وجعل ابن الأشر على
الوفادة ، واعتمد عليه فى مراقبة شئون الحكم أثناء غيبته بالحجاز .
وأنكر أصحاب مصعب عليه ذلك ونصحوه ألا يطعن إلى إبراهيم
ابن الأشر ، فقال لهم : ويحكم إنكم لا تستطيعون أن تعرفوه مثلى . والله
إنى لأتقى بإبراهيم أكثر من الناس جميعا . إن عبد الملك بن مروان قد كتب

إليه بالموصل يستقدمه إليه ليوليه الولايات ، فرفض دعوة عبد الملك .
وآثرني عليه .

* * *

وغادر مصعب الكوفة في وفد من وجوه أهل العراق حتى قدم على أخيه عبد الله بمكة . وكان أول ما فاتحه به عبد الله أن لأمه في تقريبه لإبراهيم بن الأشتر ، وذكره بأن أباه مالكا الأشتر هو الذي جرحه في وقعة الجمل ، حيث برك الأشتر على عبد الله فجعل يصيح صيحته المشهورة :

اقتلوني ومالكاً واقتلوا مالكا معي
فأجابه مصعب بأن ذلك أمر قد مضى ، ولا شأن لإبراهيم بما كان من أبيه .

فلما أكثر عبد الله عليه في ذلك غضب مصعب وقال : إنى اخترت إبراهيم بن الأشتر على علم مني ، فإما أن تقرني على عملي وإما اعتزلت فول مكاني من شئت .

فعجب عبد الله من شدة مصعب في هذا الأمر ، وأعرض عنه ولم يعاود القول فيه . وكان مصعب يأمل من أخيه أن يكرم وفادة أصحابه الذين قدم بهم من العراق فقد كانوا من خيرتهم ، وسيكونون لسان صدق له حين يرجعون إلى بلادهم . ولكن عبد الله بن الزبير خيب أمله وآمالهم فيه ، فأخرج مصعباً أمامهم حتى قال لهم مصعب : لا يغضبنيكم هذا من أخني فإنه رجل متمزمت متشدد ، لا يرى من حقه أن يرزأ بيت مال المسلمين من أجلكم ، ولكني سأنوب عنه في تكرمتكم وعطاياكم حين

نعود إلى العراق .

ولم يكتف عبد الله بحرماتهم من العطاء ، حتى قال لهم لما اجتمعوا عنده : جئتنى يا مصعب بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله .. وددت والله أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، يصرف الدينار بالدرهم !

فأجابه أحدهم وكان قاضى الجماعة فقال :

يا أمير المؤمنين إن لنا ولكم مثلا قد مضى ، وهو ما قال الأعشى :
علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل
علقتك يا أمير المؤمنين وعلقت أهل الشام ، وعلق أهل الشام عبد الملك بن مروان ، فماذا عسينا أن نصنع ؟ .

وضاق مصعب بأخيه صدرا ، فاختلى به وجعل يلومه ويعنفه على ما صنع بوفد العراق ، وقال له : إنك لن توفق أبدا . أجيئك بوجوه أهل العراق ونخبهم لتكرمهم فيكونوا قوة لك ، فإذا أنت تهنيم وتمنعهم من عطائك : ما هكذا يا أخى تكون السياسة ، وما هكذا تحفظ الخلافة .
فقال له عبد الله :

— ويلك يا ابن أخت بنى كلب ، أتريد أن تفتننى عن دينى لأفرق مال الله بددا فى هؤلاء وما فيهم إلا غنى عنه ، وليس بينهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين . بثست الخلافة إذن إن كنت لا أحفظها إلا بشراء الذمم ، كما يفعل آل مروان !
— إذن فلن تبقى لك أبدا .

— إذن فلا كانت ! .

— علام إذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين .. خليفة في مكة وخليفة في الشام ! .

— ويلك ! إنما أردت أن أحملهم على المحجة البيضاء ، وأنقذهم من طمع آل مروان وتكاثرهم وفسادهم .

— فإنك لن تصل إلى ذلك بكَرازة اليد والعطاء المصرد .

— هلم يا مصعب ، لقد أردت أن أحاسبك أنت فإذا أنت تحاسبني ! .

— في أى شيء تريد أن تحاسبني ؟ ألم أقض لك على المختار بن أبى عبيد ؟ ألم أوطد لك حكم العراقيين ؟ ألم أجمع حولك الأنصار ؟ .

— ولكن ماذا فعلت بمال الله الذى جعله فى يدك ؟ ألم تمهر كلا من سكينه بنت الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة ألف درهم ؟ ألم تعط لعلى بن الحسين الذى حمل إليك أخته من المدينة إلى البصرة ، أربعين ألف دينار ؟ .

— هذا خويصة أمرى فلا شأن لك به ، وما أمهرتهما من مال الله كما تزعم بل من صلب مالى . أولًا تذكر حين اجتمعنا عند الحجر الأسود من قديم ، فتمنى كل واحد منا أمنية ، وقد تمنيت أنت الخلافة فأعطيتها ، وتمنيت أنا أن أملك العراقيين وأن أجمع بين سكينه وعائشة فأعطيت ما تمنيت ، فماذا يضيرك من ذلك ؟ .

وأدرك مصعبا وقت الحج ، فلما وقف بعرفات لقيه رجل وسيم الهيئة فنظر إليه مليا ، فسأله مصعب :

— ما خطبك ؟ .
— لا شيء ، غير أنى نظرت إليك فقلت فى نفسى : هذا فى أكره أن
تراه بثينة !

— أنت جميل بن معمر .
— نعم . وأنت مصعب بن الزبير . وددت لو رزقنى الله مثل وجهك
هذا بما طلعت عليه الشمس .

فتبسم مصعب وقال : ماذا كنت تصنع به يا جميل بن معمر ؟ .
— أفتن به قلب بثينة وأشغفه حبا .

فضحك مصعب حتى بدت نواجره ثم قال :
— إنك تحسدنى على وجهى ، وأنا أحسدك على شعرك .
— ماذا تصنع بالشعر وعندك ما يغنيك عنه ؟ .
— أستعطف به قلوب الهواجر ! .

— وهل لك من هواجر يا مصعب ؟ وقد جمع الله لك بين أجمل نساء
العرب ؟ .

— لو تعلم يا ابن عمى ما ألقى من مغاضباتهن ، ما قلت الذى قلت .
— إنما يصنعن ذلك دلالا ، لا قلى ولا ملالا ، ولن يغنى عنك الشعر
فى ذلك شيئا ، وشتان يا مصعب بين هجر الدلال وهجر القلى والملال .
— أو تشكو بعد من بثيتك ؟ ألم يرق قلبها لك بعد ؟ .
— لو قد رق لى قلبها ، ما تمنيت لى وجهها كوجهك ؟ .
— هل لك فى أن ألقاها فأكون شفيعا لك عندها .

— كلا كلا يا رجل . ضل من جعلك شفيعه إلى امرأة .

وتولى جميل عنه مسرعا ومصعب يضحك .

وكان مصعب ذات يوم بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر الأسود حاجته الذكرى ، فوقف هنيهة يسترجع ما كان في أول شبابه ، حين اجتمع عند الحجر الأسود مع جماعة فيهم أخواه عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير ، وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان فقالوا : ليقم كل واحد منكم وليسأل الله حاجة ، وكيف أن الله قد أعطى كل واحد منهم ما تمناه .

واشتاق أن يرى أولئك النفر ، فذهب إلى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك . فلما لقيه أعرض عنه ابن عمر وجعل يلومه على ما فعل بأصحاب المختار كيف قتل في يوم واحد ثلاثة آلاف رجل ، فأخذ مصعب يعتذر ويقول : إنهم فسقوا إذ اعتقدوا أن أصحابهم يوحى إليه .

قال عبد الله : هلا استتبهم أولا ، فمن لم يتب منهم قتلته ؟ .

— ما كانوا ليتوبوا أبدا .

— ألم يعرضوا عليك أن يقاتلوا معك ؟ .. أفلا يدل ذلك على أنهم

ترجى توبتهم ؟

— لقد أردت أن أقبلهم ، لولا أن أصحابي من وجوه أهل العراق

عارضوا في ذلك وقالوا اخترنا أو اخترهم .

— ما إخالهم إلا نظروا في ذلك لصالح عبد الملك بن مروان ، خشية

أن تقاتله بهؤلاء .

وذعر مصعب لهذه الكلمة التي أرسلها عبد الله بن عمر إرسالا دون



تدبر ولا روية ، ولكنها أثارت في قلب مصعب شجنا كامنا . فقد كان يحس في أعماق نفسه أن لإشفاقه من قتال عبد الملك ، ورغبته الخفية في توقيه جهد ما يستطيع أثرا في موقفه من أصحاب المختار ، إذ ألحوا عليه إلحاحا شديدا في أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان ، فكأنه أراد التخلص منهم حتى لا يحملوه حملا على ما لا يريد .

ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذه الحقيقة التي يكتُمها عن الناس جميعا ، ولم يكشف بها غير صديقه الأحنف بن قيس . ترى ماذا يكون موقف أخيه منه لو علم ؟ .

وكان قد سمع من الأحنف بن قيس مثل هذا الاتهام الذي سمعه من عبد الله بن عمر ، إذ قال له الأحنف يوم مذبحة أصحاب المختار : ألا يجوز يا مصعب أن لعبد الملك بن مروان يدا في تخريض أصحابك هؤلاء على المطالبة بقتل أصحاب المختار ، لما علم من حماسهم لقتاله ؟ .

ولكن لم يكن لمقالة الأحنف إذ ذاك في نفسه مثل الأثر الذي تركته مقالة عبد الله بن عمر اليوم ، فقد خشى أن يشيع هذا الظن في الناس فيبلغ أخاه عبد الله بن الزبير .

وصاح مصعب مجيبا عبد الله بن عمر :

— ماذا تقول يا ابن عمر ؟ أتشك في نية أصحابي وإخلاصهم ؟ أو

تهمهم بالعمل لصالح عبد الملك بن مروان ؟ .

— أنا لا أتهم أحدا ، ولكن إن كان لأحد صالح في قتل هؤلاء فهو عبد

الملك بن مروان .

— إنما ألح أصحابي في قتل هؤلاء ، لأن هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيرا من أولادهم وعشائرتهم .

— إني لا ألوهم بل ألوئك أنت . ويحك خبرني يا مصعب لو أن رجلا أتى ماشية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف رأس في غداة واحدة ، ألسب تعده مسرفا ؟ .
— بلى .

— أفتراه إسرافا في البهائم ولا تراه إسرافا فيمن ترجو توبتهم ؟ .
فتأثر مصعب مما سمع ، ووقف مكتئبا لا يحجر جوابا .
فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :

— يا ابن أخي أصب من الماء البارد ما استطعت في دنياك .
فكان لهذه الكلمة الأخيرة أثر عميق في نفس مصعب لا تحويه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حياته ، وكلما فكر في معناها اقشعر بدنه وتقطع قلبه ندما وخشية .

* * *

لم يخف مصعب على أخيه عبد الله استيائه منه ، لما أساء استقبال وفد العراق ، ولما أغلظ له الحديث في أمر سكيمة وعائشة ، فلم يشأ أن يكثر التردد عليه أثناء إقامته بمكة فكان لا يزوره إلا نادرا .

ولما عزم على الرجوع إلى العراق خطر له أن يرحل من مكة دون أن يسلم على أخيه أو يودعه ، حتى يكون ذلك بمثابة الاحتجاج عليه . ولكنه عماد فرأى أن في ذلك افتئاتا على حق أخيه الخليفة ، وخشى أن يتخذ أحد

بطانته من ذلك سببا لإيغار صدره عليه ، وتصويره بصورة من يريد الخروج عن طاعته .

وحين حضر لتوديعه جلس معه طويلا ، فذاكره عبد الله في أمر عبد الملك بن مروان ووجوب معالجته بالحرب ، فوعده مصعب خيرا ، وقال له إنى راجع إلى العراق لأدبر فيها الأمور وأهيب فيها الأسباب ، حتى إذا اطمأنت إلى استقامة الأحوال بها مضيت بجيشي إليه ، وكتبت إليك لتعززي بجيش من عندك يلقاني في الطريق .

قال عبد الله : أخشى يا مصعب أن تنسيك الدعة في العراق ما تعدني به اليوم .

فأجابه مصعب في شيء من الحدة :

— يا أخى لم لا تحسن رأيك في ؟ إن الدعة لا تشغلنى عن مهام الأمور .

— هذا قول تقوله يا مصعب ، وأخشى أن يكذبه ما يبلغنى من عملك . وكان مصعب يخشى أن يكون قد بلغ عبد الله شيء عن ضعف نيته في قتال عبد الملك ، لما بينهما من الصداقة القديمة ، ولكنه لما ذكر الدعة أدرك يقينا أن أخاه لا يدرى عن هذه الحقيقة شيئا ، فاطمأنت نفسه وانشرح صدره ، وإن أظهر الحدة في رده عليه حينما اتهمه بحب الدعة . ولم يكذ مصعب يصل إلى الكوفة ويستقر بها أياما ، حتى انتهى إليه أن أخاه قد عزله من ولاية البصرة وولى مكانه عليها ابنه حمزة ، فغضب مصعب غضبا شديدا ، ولم يقلل من غضبه أن عبد الله كتب إليه في الاعتذار عن ذلك بأنه أراد أن يفرغه هو للاستعداد لقتال عبد الملك حتى

لا يشغله عنه شيء ، وأن من الخير أن يكون على البصرة رجل من آل الزبير ، أثناء سير مصعب إلى الشام لمنازلة عدوه .
 واجتمع بالأحنف بن قيس وإبراهيم بن الأشتر وغيرهما من كبار أصحابه ، فتذاكر معهم سوء سياسة أخيه وبخله واستبداده بالرأى ، واستشارهم فيما ينبغي عليه أن يفعل .
 فأشار عليه أكثرهم ألا يخضع لأمر أخيه ولا يعترف لحمزة بولاية البصرة ، وأن يكتب إلى نائبه بها أن يستمر في حكمها بالنيابة عنه ، ولا يمكن حمزة من شيء حتى يضيق صدره فيلحق بأبيه راجعا إلى مكة .
 ولكن الأحنف بن قيس خالفهم في هذا الرأى بشدة ، وقال لمصعب :

— إنك إن فعلت ذلك أعلنت للناس أنك على خلاف مع أخيك أمير المؤمنين ، ولن يستقيم لك ولا له أمر بعد ذلك .
— فماذا أصنع يا أبا بحر ؟
— فأطرق الأحنف مليا ثم قال له :
— ماذا ترى في ابن أخيك حمزة هذا ؟
— شاب أخرق أحق لا يحسن أن يسوس بيته .
— فاتركه إذن بحكم البصرة برهة حتى يظهر فساد سياسته وعجزه عن القيام بأعباء الولاية ، فسيضطره أخوك حينئذ إلى عزله ويعيد الولاية إليك .

— وإذا لم يفعل ؟
— كلا يا مصعب ، لا تمض في سوء الظن بأخيك عبد الله إلى أبعد مما

ينبغي لك ، فمهما يسغ لنا أن نقول فيه فلا ينبغي أن ننسى أنه شديد في الحق على نفسه وعلى أقرب الناس إليه .

فقال مصعب : صدقت يا أبا بحر ، إن عبد الله لكما وصفت وهذا ما حيرني في أمره ، كيف يحاسبني على النقيير والقطمير ثم يولى ابنه هذا الأخرق على البصرة ؟

ولما انصرف أصحابه من عنده ولم يبق إلا الأحنف ، قال له :
— ويحك يا مصعب ما كان ينبغي أن تعلن هذا على ملأ من الناس ،
فإنك لا تأمن أن يكون فيهم من يكتب إلى أخيك عبد الله بما يسمع منك .

فقال مصعب : ليلغه ذلك فإني لا أبالي .
— كلا يا مصعب ، ما يكون لك أن تصعب الأمور على نفسك وإن
الكياسة ملاك السياسة .

قال له مصعب : أعلى أن أنتظر حتى يثبت عجز حمزة وفساد سياسته ، لغير شيء إلا أن أوافق أخى عبد الله على استبداده ؟

قال الأحنف : ويحك أى شيء يعجلك ؟ إنك لست حريصا على قتال عبد الملك بن مروان ، وهذا ضعف فيك . فماذا يضريك أن تجدد في عزلك عن البصرة وتولييتها لحمزة ما تعتذر به إلى أخيك عن التعجيل بالمسير إلى الشام ، خشية أن تضطرب أمور العراق في غيبتك ؟ .

فاستراح مصعب لهذه الكلمات إذ أصابت هوى في نفسه ، فقد كان لا يكره شيئا في الحياة ما يكره أن يضطر إلى محاربة ذلك الصديق الحميم .

* * *

(الفارس الجميل)

طراً على مصعب تغير شديد في مزاجه وسلوكه ونظرته إلى الحياة منذ عودته من الحجاز . فلم يعد ذلك المرح البسام الذى يأخذ الحياة أخذاً لينا ، ويستقبلها بصدر منشرح ، ويستمتع بها استمتاع من لا يفكر إلا في يومه ولا يبالى بغده .

وأخذت الهموم تساور قلبه فتكدر عليه يومه وتورق ليله أحيانا ، وتضطره للتفكير في المستقبل فيجده كالحال لا يبشر وجهه بخير ولا يفتر ثغره عن أمل . أين تلك الثقة التى كانت تفيض بها نفسه ؟ وأين تلك الآمال التى كان يحيش بها صدره ؟ لقد قضى على كل ذلك ما لقيه به أخوه عبد الله حين قدم عليه في عاصمة ملكه .

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد ، ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد ذلك النصر الكبير الذى أحرزه على عدوه اللدود المختار بن أبى عبيد ، أن تبلغ بأخيه كزازة اليد بحيث يمنع عطاءه عن تلك النخبة المختارة من وفد العراق ، الذين قدم بهم عليه مزهوا بهم مؤملاً أن يلقوا من أخيه أمير المؤمنين ما يكافئ بعض ما قدموا من نصرة له ، وبعض ما أظهروا من إخلاص في سبيله ، حتى يبض وجهه هو أمامهم ، فيستطيع في المستقبل أن يثق باستمرار ولائهم له وعدم انصراف قلوبهم عنه إلى أعدائه .

لقد رجع من الحجاز وهو يشعر بالخزى والهوان مما فعله أخوه عبد الله بوجوه أهل العراق ، إذ لم يكتف بمنع العطاء عنهم بل أهانهم جهاراً وندد بهم على تلك الصورة المندية حيث وازن بينهم وبين أهل الشام فود لو أن له بكل عشرة منهم رجلاً واحداً من أهل الشام يصرف الدينار بالدرهم .

أجل إنه قد أجزل لهم العطاء عقب عودته من العراق ليعوضهم عما فاتهم من عطاء أخيه ، وبالع التحبب إليهم والتقرب إلى قلوبهم ، ولعله قد نجح في استبقاء مودتهم له . ولكن كيف يزيل عنهم أثر الإهانة التي مستهم من أخيه ، وكيف يستعيد له بعدها ولاءهم وإخلاصهم ؟ وإن فرقا كبيرا بين أن يخلصوا له هو ، وبين أن يخلصوا للقضية العامة التي يعمل لها ويجاهد في سبيلها أخوه أمير المؤمنين .

لأنهم لن يوازنوا بينه وبين عبد الملك بن مروان فما هو إلا أمير تابع لأخيه عبد الله ، ولكنهم سيوازنون حتما بين عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وبين عبد الملك بن مروان الخليفة بالشام ، فمن ذا يستطيع أن يلومهم إذا مالت نفوسهم إلى عبد الملك ؟ .

وها هو ذا أخوه عبد الله يعزله عن ولاية البصرة ، كأنما يريد أن يؤكد لهؤلاء العراقيين أن ليس لأخيه مصعب شيء من الأمر ، وكأنما يقول لهم بلسان حاله : ويلكم لا تغتروا بصاحبكم مصعب ، فإنني أنا الحاكم من ورائه ومرجع الأمر كله إلّى .

إنه هو الكريم بالطبع والنخيزة لأشد الناس ضيقا بما جبل عليه أخوه عبد الله من البخل ، وأعمقهم إحساسا بالألم والمرارة من جرائه ، وبالحياء منه والتخل كذلك .

وإنه ليعتذر عنه لبعض من يجلسون إليه من غير خاصة أصحابه ، فيزعم لهم أن مرجع ذلك من أخيه عبد الله إلى فرط تقواه وشدّة محاسبتها لنفسه ، وحرصه على ما استحفظه الله عليه من مال المسلمين أن يصرف في

غير ما أمر الله به أن يصرف من وجوه الخير والبر ، ولكنه لا يؤمن بذلك في قرارة نفسه ، ولا يعزوه إلا إلى رذيلة البخل وهى أبغض الخلال جميعا إليه .

وتتسلسل الهموم آخذا ببعضها برقاب بعض ، فيذكر أولئك الثلاثة الآلاف من أصحاب المختار الذين تركهم يذبحون في يوم واحد ، بعد ما توسلوا إليه أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه آل مروان أعداءهم وأعداءه ، وكان في وسعه أن يحول دون ذلك لو وقف موقف الحزم من أشياعه الكوفيين .

ويتذكر تلك الكلمة التى حصبه بها الرجل الصالح عبد الله بن عمر حين لقيه بمكة ، فلم يزل دويها في سمعه وقلبه : يا ابن أخى أصب من الماء البارد ما استطعت في دنياك .

ويتذكر امرأة المختار ابنة النعمان بن بشير صاحب رسول الله ﷺ ، التى قتلها أصحابه غدرا وهى فى طريقها بين الكوفة والحيرة ، فعيره بذلك الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى أبياته التى جرت على أفواه الناس فى كل مكان .

لقد احتمل قبلا كل ما احتمل من ذلك من أجل أخيه عبد الله أمير المؤمنين ، وفى سبيل القضية العادلة التى ينافع عنها خير المسلمين ، والتى كان يطمح أن تنتصر فى المستقبل القريب .

أما اليوم وقد أوشك أن يئأس من مستقبلها ، فعلام احتمل كل ما احتمل ؟ وعلام استباح فى سبيلها ما لم يقره ضميره ولم تسوغه له مروءته ؟ .

ثم إن من أشد ما يؤلم نفسه أن العدو المطالب هو بقتاله ، لم يكن غير صديقه القديم الحميم عبد الملك بن مروان .

لقد استطاع زما أن يتقى الاشتباك معه في حرب بما كان يشغله هو من قتال المختار بن أبي عبيد ، وبما كان يشغل عبد الملك من قتال الروم والخوارج .

فأى عذر بقي له اليوم بعد ما قضى على المختار بن أبي عبيد وفرغ منه ؟ وإن أخاه عبد الله ليحثه على المسير إلى الشام لمانزلة عبد الملك ، وإنه ليزعم له أنه ما عزله عن إمارة البصرة وجعلها لابنه حمزة ، إلا ليتفرغ مصعب لهذه المهمة الكبرى .

وإنه ليعلم أن هذا عذر أقبح من الذنب . ولكن لماذا لا يتخذ سببا لتسويق المسير إلى الشام كما نبهه إلى ذلك الأحنف بن قيس ؟ في وسعه الآن أن يكتب إلى أخيه عبد الله بأنه لا يستطيع أن يغادر العراق ويتوجه صوب الشام لمانزلة عبد الملك ، إلا بعد أن يثبت حمزة أنه قادر على ضبط الأحوال وتصريف الأمور في ولايته ، ويومئذ يطمئن هو فيسير .

وإلى أن يتم ذلك قد تجدد أمور وأمور ، ليس من المستطاع التكهن بها اليوم .

ولم يطل بمصعب الانتظار ، فإن حمزة ابن أخيه عبد الله لم يلبث أن ظهر عجزه عن حكم البصرة وسوء سياسته في أهلها ، فضايقوا به وتذمروا من وجوده بينهم ، وأخذوا يستخفون بأمره ، ويستهنون بشأنه ،

ويتندرون عليه . فيغضب هو منهم ويشتط في معاملتهم ، فلا يزيدهم ذلك إلا نفورا منه وإغراء به .

ولم يسع الأحنف بن قيس عندئذ إلا أن يكتب إلى عبد الله بن الزبير يطالبه بعزل حمزة عن ولاية البصرة ، وإعادتها إلى مصعب كما كانت ، ويقول له : إن عبد الملك قد فرغ من مناقسة عمرو بن سعيد الأشدق إذ قتله غدرا ، وإنه خليق الآن أن يستعد لغزو العراق .

واستجاب عبد الله بن الزبير لكتاب الأحنف فعزل ابنه حمزة ، وأعاد ولاية البصرة إلى مصعب ، وأوصاه بالتوجه لمناجزة عبد الملك فكان ذلك يوما مشهودا ، إذ رجع مصعب إلى البصرة ليصلح بها ما أقسده ابن أخيه ، وليرتب فيها الأمور استعدادا لما ليس منه بد من التوجه إلى الشام لتنفيذ ما أمره به أخوه عبد الله .

وأخذ معه نساء الأربع فأعادهن إلى دورهن بالبصرة ، وكأثما أحس أنه يقيم بها هذه المرة مقام مودع ، وأنه لن يلبث أن يغادرها لغير رجعة ، فأطلق لنفسه العنان في الاستمتاع بأقصى ما يمكنه من مباحج الحياة في هذه المدينة الوادعة ، ذات الزروع وذات النخيل وذات الشط الذى تتمايل فيه السفن والقوارب غادية رائحة .

آه ما أجمل الحياة في ظل السلام ، حيث لا حرب ولا خصام . اللهم إلا تلك الخصومات اللذيذة العذبة التى تنشب بينه وبين نسائه الجميلات ، اللاتئى يتنافسن عليه أيهن تكون لها الخطوة الأولى عنده والمقام الأول في قلبه .

وقد أتيح لمن في هذه المدينة من فراغه ودعته ، ما لم يتح لمن في الكوفة ، فأمكن في التحجب إليه والتدلل عليه في أساليب مختلفة ، لكل واحدة منهن أسلوبها الذي تجيده .

ولقد كان يشقى بهن ، وبما يصدر عنهن من منافسات ومكائد تدور حوله كأنما هو كرة تتلاعب بها الصواالج ، ولكنه كان يجد لذلك لذة لا تعدلها لذة في الحياة .

كان يلذ له الهجر كما يلذ له الوصل ، ويعجبه العتب الجميل كما تعجبه الشكوى الرقيقة ، وتطيب له المغاضبة كما تطيب له المراضاة ، وإنها لأمر محبة إليه إذ يجد فيها مجالا لقلبه أن يتوثب ، ويتعذب ويشتكى ويستعذب ، ويتقلب بين حلاوة الوصل ومرارة الهجران .

ولقد اجتمع له من أجمل نساء العرب في عصره ، ما كانت تكفى واحدة منهن ليقصر عليها بعلمها قلبه ، ولكن قلب مصعب الكبير يتسع لمن جميعا ، وتبقى فيه بعد زوايا خالية تود لو أن الشرع أباح له أن يشغلها بنسوة آخر .

وكان أشد ما يلقي من ذلك ما يلقي من عائشة بنت طلحة ، فقد كانت أشرسهن عليه ، وأكثرهن نشوزا ودلا وتعذيا .

إنه لا يعرف من أين يأتي رضاها ولا من أين يأتي سخطها ، فقد يعمل شيئا يريد به رضاها فإذا هي تغضب منه ، وقد يأتي أمرا يحاول به أن يغضبها فإذا هي ترضى عنه وتشكره عليه .

ولن ينسى أبدا كيف عرضت عليه ذات يوم ثمانى لؤلؤات ، لم ير الناس

أكبر منها حجما قط ولا أجمل بريقا ، فاشتراها بعشرين ألف دينار . فانطلق بها فرحا إلى دار عائشة ليقدمها هدية إليها ، وكان يعرف غرامها باللؤلؤ الأصيل ، وحرصها على الاستكثار منه وتدقيقها في اختياره ، فلما دخل عليها عند الضحى وجدها نائمة ، فلم يستطع من فرط سروره بما يحمل لها أن ينتظر حتى تستيقظ من تلقاء نفسها ، فأيقظها ونثر اللؤلؤ في حبرها وهو يقول :

— جئتك يا عائش بلؤلؤ لا يصلح لغير جيدك ، وليس عندك مثله .
فما راعه إلا أن نظرت إلى اللؤلؤ بغير اهتمام ، ثم قالت وهى تتشاءب :
— ويليک يا مصعب ! أمن أجل هذا توقظنى من نومتى ؟ والله إن نومتى كانت أحب إلى من هذا اللؤلؤ !
وعادت إلى نومها ، وهى تومئ له أن اخرج ودعنى أتم وحدى فى سلام .

وكان ربما يدعوها للتنزه معه فى بعض ضواحي المدينة ، فتقول له :
— ويحك ألا تغار على من عيون الناس ؟
فيقول لها : أى شيء يدعونى للغيرة منهم عليك ؟ أنا أكبر من ذلك يا عائشة ، وأنت أكرم من ذلك ؟ .
فتثور فى وجهه قائلة : إنك لا تحبى ، فاذهب عنى ولا تعد إلى .
فيحاول أن يسترضيها فلا تقبل له كلاما وتصفق الباب فى وجهه ، وتبقى أياما مغاضبة له لا تأذن له ولا تكلمه .
وكانت من جانب آخر قلما تحتجب ، إذ كانت تجلس وتأذن كما يأذن

الرجل ، فإذا عاتبها مصعب في ذلك قالت له :
— إن الله تبارك وتعالى وسمى بميسم جمال ، أحببت أن يراه الناس
ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما فنى وصمة يقدر أن
يذكرنى بها أحد .

فإذا راجعها مصعب في ذلك ، اندفعت تقول له :
— ويلك إن الغيرة من الضعف ، وهى لا تجدر بمثلك .
— إنما أغار عليك حبا يا عائشة ، ولا أغار عليك ضعفا .
— فادع غدا أحد أصحابك ليجلس إليك ، ويرانى بين يديك .
— أو بعد غد .
— كلا بل غدا وإلا فلا .
— حبا وكرامة .

قال ذلك وهو يعلم أن غد ذلك اليوم سيكون في نوبة سكية بنت
الحسين ، ولكنه لم يشأ أن يتقهقر أمام تحديها السافر فوعدها ، ولا بد أن
يفى بالوعد وليكن ما يكون .

و لم يدرك أنها قصدت ذلك عن عمد ، لتفسد ما بينه وبين غريمها
سكية إلا بعد ذلك بأيام ، حين صارحته هى بذلك وهى تضحك من
غفلته وسذاجته .

فلما كان الغد حضر مصعب إلى دارها ومعه أبو عامر الشعبى ، فلما
ظعن فى الدار التفت إليه وقال له ادخل فدخل معه ، ومضى نحو حجرته
فتبعه الشعبى ، فإذا هو بحجلة جميلة مكسوة بألوان الحرير فوقف ينظر إليها

مبهوتاً متعجباً من حسننها وبهائها ، ودخل مصعب الحجلة واختفى فيها فهم الشعبي أن ينصرف ، ولكنه تذكر أن مصعباً لم يأمره بالانصراف ، وحديثه نفسه بالجلوس ولكنه خشى أن يقضبه ذلك منه ، فوقف منتظراً فإذا جارية قد خرجت فقالت :

— يا شعبي إن الأمير يأمرك أن تجلس .

فجلس الشعبي على وسادة وثيرة غاص فيها حتى أشفق أن يتلفها أو يفسدها ، وظل كذلك برهة لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يريد مصعب أن يفعل به .

وإنه لكذلك إذ رفع سجف الحجلة ، فإذا هو بمصعب بن الزبير يحياه ويتسم له فاطماً أن قلبه قليلاً ، ثم رفع السجف الآخر من الحجلة ، فإذا هو بعائشة بنت طلحة قد بدت في زينتها كأنها الطاووس فأخذت تبتسم له وتحياه ، فلا يحير جواباً ..

— ويحك يا شعبي ألا ترد تحيتي بأحسن منها ؟

وتلثم الشعبي وتلجلج وهو يقول :

— معذرة يا سيدتي ..

— ماذا دهالك ؟ لطالما سمعت عنك أنك فصيح المنطق ، فأين ذهبت

فصاحتك ؟

وقهقه مصعب ضاحكاً وهو يقول :

— دعيه فوالله لو رأيتك أول مرة مثله لأصابني الذي أصابه .

ثم وجه حديثه إلى الشعبي فقال :



- هل تعرف هذه يا شعبي ؟
— نعم أصلح الله الأمير .
— ومن هي ؟
— سيدة نساء المسلمين ، عائشة بنت طلحة .
— كلا يا شعبي .
— فمن تكون إذن أيها الأمير ؟
— هذه ليلي التي يقول فيها الشاعر :
ومازلت من ليلي لذن طر شارى إلى اليوم أخفى حبها واد أجس
فحار الشعبي ولم يدر ماذا يقول .
ورنت ضحكة عائشة وهي تقول :
— لا تصدق هذا الرجل يا شعبي ، فإنى أنا حقا عائشة بنت طلحة .
وسكت الشعبي ولم يدر بماذا يجيب .
— انظر إلى يا شعبي . ألا يسرك أن تنظر إلى ؟
— بلى يا سيدة نساء المسلمين .
— ها أتذا قد بدأ لسانك ينطق . تكلم يا شعبي وحدثنا حديثك .
— لو أعفيتنى يا سيدتى ، فإنى والله لأدرى كيف أحدثكما .
فكركرت عائشة ضاحكة ثم قالت :
— أتحب أن تبقى هنا أم تنصرف ؟
— بل أنصرف إذا أذنت .
— استأذن من دعاك .

— هل يأذن لي الأمير أصلحه الله ؟

— اذهب يا شعبي مصاحباً ، ووافني العشى بالمسجد .

ولما كان العشى وافاه الشعبي بالمسجد فسلم عليه ، فلما رآه مصعب قال له ادن مني ، فدنا منه حتى وضع يده على مرافقه فمال إليه فقال :

— خبرني يا شعبي هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟ .

— لا والله ما رأيت عيني مثله قط .

— ولن ترى مثله أبداً .. أفندري لم أدخلناك ؟ .

— لا أيها الأمير .

— لتحدث الناس بما رأيت .

ثم التفت مصعب إلى كاتبه فقال له :

— أعط الشعبي عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوباً .

فكان الشعبي يحدث أصحابه بما رأى ويقول لهم : ما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار ثياباً ، وينظرة من عائشة بنت طلحة .

— أما سكينه بنت الحسين فقد كانت تحبه حباً صادقاً ، ولكنها لا تظهر له من حبها إلا القليل . وكان هو يحبها حباً جماً ، إلا أن تعلقها بالسياسة ، وإلحاحها عليه بمعالجة عبد الملك بن مروان كلما لقيته دون انقطاع ، وغرامها بالتنديد بسياسة أخيه عبد الله وقدها فيه ، قد قام بينه وبينها شيئاً كالستار الرقيق ، يحول دون استمتاعه بحبها على الوجه الذي يرضيه .

ولما عاد من الحجاز ساخطاً على أخيه ، أخذت تلومه وتعنفه ،

ولا سيما بعد ما عزله أخوه عن ولاية البصرة ، فكانت تقول له :
— لو عملت بمشورتي ورأيت ما انتهيت إلى هذا الحال .

تشير بذلك إلى ما كان من تحريضها إياه من قبل على الاستقلال بالعراق عن أخيه . فقد كانت ترى دائما أن مصعبا أحق من عبد الله بن الزبير بولاية هذا الأمر ، لا لأنه أفضل منه أو أتقى منه ، بل لأنه أجدر أن يجمع قلوب الناس حوله بما يمتاز به من الخلال التي تحببهم فيه ، مما ليس عند عبد الله إلا نقائضها التي تفرض الناس من حوله .

وكانت تشفق أن ترجح كفه عبد الملك بن مروان إذا بقي مصعب يعمل باسم أخيه ، فستان بين من يشتري قلوب الأنصار والأتباع بالمال والجاه ، وبين من يبيعها بالشدة والصرامة ومنع العطاء .

كانت ترى مصعبا كفاء عبد الملك ، إن يفضل عبد الملك بدعائه ومكره ، فإن مصعبا يفضل بفروسيته وشجاعته وكرمه ، وبجماله الذي يفتن الأبصار .

ولكن ماذا يجدي كل ذلك على مصعب ، إن كان يعمل من أجل أخيه الذي يهدم كل ما بينه ؟ .

إنها لا تجهل مكانة عبد الله بن الزبير ، ولا تنكر تقواه وزهده وصرامته في الحق ، وحرصه على اتباع النهج الذي سار فيه أمثال عمر بن الخطاب وعلى ابن أبي طالب من قبله ، على ما فيه من شوائب تقعد به عن اللحاق .

ولكنها ترى أن الزمان قد تغير عما كان ، وأن الطراز الذي كان يصلح



في أيام عمر بن الخطاب لم يعد يصلح حتى لأيام جدها على بن أبي طالب ، بعد ما اندلعت نيران الفتنة في أيام عثمان بن عفان فذهب هو وقودها ، وتوالت الفتن كقطع الليل المظلم فقلبت موازين الأشياء ، فنجح من كان ينبغي أن يخفق ، وأخفق من كان ينبغي أن ينجح . ومن ذا ينسى ما كان بين الإمام على ومعاوية ، ثم ما كان بين أبيها الحسين ويزيد ابن معاوية ،

لقد أخفق على وهو أفضل الناس وأتقاهم ، ونجح معاوية وظفر بالخلافة وهو لا يساوى قلامة ظفر على . ولقى أبوها الحسين مصرعه حين ثار على يزيد بن معاوية ، وشتان بين الحسين وبين يزيد .

فماذا يكون عبد الله بن الزبير إذا قيس بهؤلاء ، وكيف يتاح له النجاح من حيث أخفق من هم أفضل وأثبت في هذا النهج الذي ساروا عليه ، من له بمهابة على في صدور الناس ، أو بالحلب الذي كانوا يضمرونه للحسين ؟

أما مصعب فإنه من الطراز الذي يصلح لولاية الناس في هذا الزمان ، ففيه جميع الصفات التي تحبهم فيه وتجمعهم عليه ، وتعينه على بلوغ الغاية ، ولا يعوزه إلا شيء واحد هو الاستقلال بأمره عن أخيه .

ولقد ازداد أملها في أن يقتنع برأيها هذا حينما عزل عن البصرة ، وأسندت ولايتها لحمزة بن عبد الله بن الزبير ، إذ كان مصعب في حالة سخط شديد على أخيه ، ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ مالبت أن أعيد إلى ولاية البصرة ، ففضى ذلك على أملها في إقناعه بالانصياع لما تريد .

على أنها لم تياس كل اليأس من تحقيق الحلم الذي يراودها على وجه من

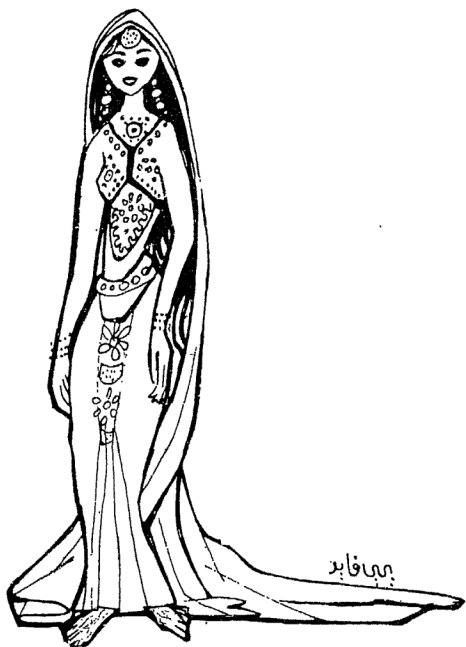
الوجوه — ذلك الحلم الذى بدأ يطوف برأسها منذ تزوجت مصعب بن الزبير ، فوجدت فيه من خلال الشجاعة والكرم والمروءة ، ما أغراها أن تطمع فى أمر لو تحقق كان فيه شفاء نفسها ونفوس شيعتها جميعا ، من الثأر لجدها ولأبيها وغيرهما من أهل بيتها النبوى الكريم ، تتأثر من ذلك البيت الذى ناصبهم العداوة ، وانتزع منهم الخلافة ، وأذاقهم صنوف العذاب والويل : بيت آل مروان .

ورددت الأنباء من الشام بأن عبد الملك بن مروان أرسل البعوث والسرايا ليكونوا طلائعته في غزو العراق ، وأنه قد أعد لذلك جيشا هائلا وصمم على ألا يعود إلى الشام في هذه المرة إلا بعد أن يفتح العراق . فلم يكد مصعب يصدق ما سمع ، إذ كان يعتقد دائما أن عبد الملك لا يمكن أن يكون جادا في قتاله هو . فطالما ركب إليه من قبل بجيشه وهو يعلن أنه سيغزو العراق ويقا تل مصعب بن الزبير ، فإذا هو يغير على بعض الخوارج في طريقه ، ثم لا يلبث أن يكر راجعا إلى الشام معتذرا بأن الشتاء بيرده ووحله قد حال دون مواصلة السير إلى مصعب .

وكذلك كان مصعب يفعل ، إذ يتوجه بجيشه نحو الشام للقاء عبد الملك في الطريق ، فلا يلبث أن يعود قافلا إلى العراق حين يبلغه أن عبد الملك قد كر راجعا إلى الشام .

ولكن إبراهيم بن الأشتر كتب إليه من الكوفة يؤكد له عزم عبد الملك ، وينهى إليه أن بعض رجاله قد تسللوا إلى الكوفة ليدعوا أهلها إليه ، وأنه قبض على نفر منهم فاستنطقهم فأقروا له ، فلم يبق عند مصعب شك في أن الأمر جد .

وأراد أن يستقدم المهلب بن أبي صفرة ، وكان يقاتل الخوارج بفارس



ليكون معه في حرب الشام ، ولكن أهل البصرة أبوا عليه ذلك وقالوا له :
— لا نسير معك ونترك البصرة هدفا للخوارج وقد بلغوا سوق
الأهواز ، ما لم تترك المهلب يقاتلهم دوننا فإننا لا نأمن أن ينقضوا على
البصرة إذا رأونا قد تركناها معك .

فانصاع مصعب لرأيهم .

ولما اعتزم المسير إلى الكوفة ، أصرت سكين بنت الحسين على أن
تصحبه حتى تكون إلى جانبه وهو يقاتل عبد الملك .

قال لها :

— إني أشفق عليك يا سكين ، من مشاق الطريق وأهوال القتال .

قالت له :

— لا عليك يا مصعب مني ، فإني انتظرت هذا اليوم من زمن
طويل . وعسى أن تهزم هذا المرواني ، فتسير إلى الشام وتملكها مكانه .
ولم يشأ مصعب أن يقول لها إنه إنما يسير للقاءه مكرها ، وأنه لو
استطاع أن يتجنب قتاله لفعل ، وأن أمله في الانتصار عليه إذا حاربه
قليل ، فقد أحس أن أهل العراق لن يقاتلوا معه بإخلاص ونية ، منذ ساء
رأيهم في أخيه عبد الله بن الزبير . فلو قال لها شيئا من ذلك لطفقت تلومه
وتعنفه على ما أضاع من الفرصة من قبل ، إذ لم يستمع لرأيها في
الاستقلال عنه من عهد بعيد .

ولكنه اجتهد أن يصرفها عن المسير معه بشتى الأسباب ، ما خلا
السبب الصحيح وهو قلة رجائه في النصر ، وإشفاقه عليها مما قد يمسيها

من عواقب الهزيمة .

فلما أصرت على رغبتها في المسير معه لم يسعه إلا أن يوافق .
وكان الأخنف بن قيس في طليعة الرجال الذين قدموا معه من
البصرة ، ولكنه كان مريضا فما لبث أن اشتد به المرض وثقلت عليه
العلة ، فأرسل إلى مصعب فعاده فوجده يجود بنفسه :
— يسوعنى والله يا مصعب أن تجدى كما ترى ، وأن تحول هذه العلة
دون ما أبغى من الخروج معك ونصرتك .
— لا بأس يا أبا بحر ، فأنى لن أخرج إلا بعد أن تقوم من علتك إن شاء
الله .

— هيات يا مصعب : فما أراها إلا النهاية .
فبكى مصعب وهو يقول :
— نفسى فداؤك يا أبا بحر .
— كفكف دموعك يا ابن أخى وأصغ إلى ما أقول ، قبل أن يقبض
لسانى فلا أستطيع الكلام . أرسل إلى المهلب ليكون ظهيرا لك في هذا
الوجه .

— قد علمت رأى هؤلاء في ذلك .
— أرسل إليه ولا تبال بهم ، فأنى لا أثق بهؤلاء ولا آمن أن يغدروا بك
إذا حمى الوطيس .

— إنى أخشى من الخوارج على البصرة .
— أمر الخوارج أهون من أمر عبد الملك ، فإن غلبته كان يسيرا عليك

أن تخرجهم من البصرة بعد ذلك . أما إن غلبك . .
وثقل لسان الأحنف فلم يستطيع أن يتم كلمته .
وحزن مصعب لموت صديقه الأحنف حزنا شديدا ، فقد كان أمين
سره والملجأ الذى يلجأ إليه كلما حزبه أمر عظيم أو وقع فى مشكلة لا
يدرى وجه الرأى فيها ، فيجد عنده ما يشاء من حل سليم وتوجيه
حكيم .

وتشاءم من موته فى تلك الفترة الحرجة وذلك الوقت العصيب ، وهو
يتجهز لقتال أهل الشام وقد قلت ثقته بأشياعه من أهل العراق ، منذ كان
من سوء معاملة أخيه عبد الملك لهم فى الحجاز ما كان .
وهم أن يعمل بوصيته فى استقدام المهلب بن أبى صفرة ، ولكنه أشفق
أن يثير ذلك قيامة أهل العراق عليه ، وليس لديه من يشد أزره عليهم
ويعينه فى إخضاعهم لأمره ، بعد أن مات ذو الكلمة المسموعة بينهم
والرأى المطاع .

* * *

وقضى مصعب بعد موت صديقه الأحنف أياما وليالى وهو فى بحران
من الهم ، لا يستطيع له دفعا ولا يجد منه خلاصا . واستبدت به الحيرة فلا
يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، وتردد فى كل شىء فلم يستطيع أن يعقد عزمه
على شىء ، حتى لقد نازعته نفسه أن يعدل عن المسير لقتال عبد الملك
ويعلم ذلك للناس .

لقد أيقن أن أمر أخيه عبد الله بن الزبير إلى إدبار ، وأن نجم عبد الملك

ابن مروان إلى سطوع ، وأن قصارى ما يستطيع عمله هو إذا ما خرج لقتال عبد الملك وانتصر عليه أن يؤجل هذه النهاية إلى حين ، ولكنها آتية لا ريب فيها إن عاجلاً أو آجلاً ، فماذا يدفعه إلى القتال في سبيل قضية خاسرة ؟

ولكن هل يستطيع حقاً أن يتراجع عن المسير لقتال عبد الملك ؟ وماذا يكون موقفه من أخيه وموقف أخيه منه ؟ ثم ماذا يكون من أمر عبد الملك نفسه ؟ أيرتد قافلاً إلى الشام إذا بلغه عدول مصعب عن لقائه وذلك بعيد ، أم يمضى قدماً حتى يقرع عليه أبواب العراق ؟ وإذا فماذا يفيد تراجع مصعب إن فعل ؟

لقد فقد مصعب كل أمل إلا أملاً واحداً يترأى له من بعيد .. أملاً يكتنفه الشك من كل جانب ولا يجزئ مصعب أن يحدث به أحداً ، لأن أحداً لا يمكن أن يقتنع به ، بل ربما سخر منه إذا سمع به ، وإن مصعباً نفسه لقليل الثقة في إمكان أن يتحقق ، فقد جعلته الأيام ساء الظن بالناس قليل الإيمان بأن فيهم بعد من يلتزم قواعد المروءة والشهامة كما يلتزمها هو ، ويراهها قطعة من نفسه وجزءاً من تكوينه . وإنه ليقرب فكره في الناس من قريب وبعيد ، وبين كبير وصغير ، فلا يجد هذه السمائل في أحد منهم بالصورة التي يجدها في نفسه ، بحيث يستطيع أن يتعامل معه على كلمة سواء ، اللهم إلا أن يكون إبراهيم بن الأشتر .

ولكن هذا الأمل هو الأمل الوحيد الذي بقى أمامه ، فعليه أن يلوه ليرى ما يكون من أمره ، وأن يغلب حسن ظنه بنفسه على سوء ظنه

بالناس . واستدعى مصعب إبراهيم بن الأشتر ، فلما خلا به قال له :

— أتدرى يا إبراهيم لماذا دعوتك الساعة ؟

— لخير إن شاء الله .

— أجل لأرى رأيك في أمر رجوت أن يجعل الله لنا فيه مخرجا مما نحن

فيه .

— وماذاك يا مصعب ؟

— أحسبني قد حدثتك ذات مرة بما كان بيني وبين عبد الملك بن

مروان من صداقة قديمة ، وود متين .

— نعم .

وأسررت إليك أيضا أننا ظللنا برهة يتقى أحدنا حرب الآخر ، فكان يخرج لقتاله ثم يكر راجعا من نصف الطريق .

— نعم نعم ، ولكنه في هذه المرة لن يرجع يا مصعب عن قتالنا حتى

يفتح العراق ، أو نفتح نحن الشام . أو تشك بعد في ذلك يا مصعب ؟

— كلا يا إبراهيم ما أشك في ذلك ، ولكن سنح يبالى أن لو مضيت

إليه سرا دون أن يعلم أحد بمذهبي حتى أصل إليه في بعض الطريق ،

فأزعم لرجاله أنني رسول مصعب بن الزبير إليه ، فإذا خلوت به كلمته

وناشدته أن يرجع من حيث جاء فتحقق بذلك دماء المسلمين أن تراق في

غير طائل .

— ويحك يا مصعب ، أو تظن أن ابن مروان يستجيب لك ؟

— قد يستجيب فإنه ما علمت — لرجل خير .

— كلا يا مصعب ، إن عبد الملك الذى كنت تعرفه فيما مضى غير عبد الملك اليوم .. إن الذى كان يدعوه الناس حمامة المسجد قد انقلب اليوم إلى كبش بنى مروان .. كبش نطاح وأيم الله يا مصعب !
— أعلم ذلك يا إبراهيم ، ولكنه لن ينسى ما بيننا من الود القديم .
— أتدرى يا مصعب ما آفتك ؟ آفتك أنك تقيس غيرك بمقياس نفسك .

— وأى بأس فى أن أجرب هذا السبيل معه ؟ إن لم يقبل استعنت الله عليه فقاتلته وقد أعذرت .

— خبرنى يا مصعب ، أتشفق منه عليك ، أم تشفق منك عليه ؟
— أشفق على الحلة التى بيننا ، أن تقضى عليها حرب لا طائل فيها لأحد .

— لعلك يا مصعب لم تعد ترى أخاك أحق بالخلافة من عبد الملك ؟
— بلى ، إن أخى لأحق بها منه .
— مهما يكن رأيك فى أخيك ، فإن عبد الملك يرى نفسه أحق بالخلافة من أخيك ، فلن يضيع فرصة تتيح له الغلبة عليه من أجل صداقة قديمة بينك وبينه ، أو ود متين .
— إذن يكون لى معه شأن آخر .

— لعلك تعود إلينا من عنده فتخرج بنا لقتاله ؟

— نعم .

— من أين لك أنه لا يغدر بك فيبيئك أسيرا عنده ؟

- كلا يا إبراهيم ، لن يغدر بى عبد الملك .
- ماذا يمنع ؟ لقد غدر بابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق .
- لكنه لن يغدر بى أبدا . ربما لا يستجيب لما أدعوه إليه ، ولكنه لن يغدر بى أبدا . محال أن يصنع بى ذلك .
- محال ؟
- وملك ما خطبك يا ابن الأشر ؟
- كنت أحسب أنك تعلم من شرع المروءة أكثر من هذا .
- ما شأن مروءتى فى هذا الأمر ؟
- هب أنك كنت مكان عبد الملك ، أفكنت تغدر بى على هذه الصورة ؟
- بربك لا تقسنى بعبد الملك فشتان ما بينه وبينى .
- معذرة يا إبراهيم . حقا إنك لأفضل منه وأعظم مروءة ، ولكنه هو أيضا لا يمكن أن ينحدر إلى هذا الدرك .
- ماذا يحملك على أن تتجشم إليه الطريق بنفسك ؟ ابعث إليه بكتاب منك ، أو ابعث إليه رسولا يشاففه بما تريد .
- كلا يا ابن الأشر ، لن يكون ذلك مثل حضورى بنفسى إليه .
- والله يا مصعب لولا ما أمنتنى على شرك ، لكتبت إلى أخيك عبد الله بنيتك هذه مع عدوه ليخلعك ، ويولى غيرك مكانك .
- حاشاك يا إبراهيم أن تفعل ذلك .
- وطار الحوار بينهما على غير اتفاق ، وأدرك ابن الأشر ألا سبيل إلى

إقناع مصعب بالعدول عن عزمه ، فتركه وما اختار لنفسه دون أن يجد عليه فى ذلك ، بل أحس برثاء له وشفقة عليه ، وإكبار لهذه الشرائل فيه التى يندر وجودها فى الناس ، وهى بعد غير غريبة على نفسه .

— أما إذ صممت على ذلك ، فدعنى أرافقك إليه لعلك تحتاج إلى .
— كلا يا إبراهيم ، بل ابق أنت هنا مكانى حتى أعود من عنده ، وقد هيات أنت الناس للمسير .

— إذن فاحرص على شرك هذا لا تفشه لأحد ولا لأهلك . وسأزعم للناس أنك انطلقت إلى جهة الأهواز لتتفقد مواقع المهلب بن أبى صفرة مع الخوارج ، حتى تأمن جانبهم قبل أن تمضى لقتال عبد الملك .
وسر مصعب من رأيه هذا فاحتضنه وقبل ما بين عينيه ، وهو يقول :
— بأى أنت يا إبراهيم وأمى . والله لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يؤيدنى الله بك .

ولما دخل مصعب على سكينه وأخبرها بعزمه على زيارة الأهواز ، أنكرت عليه ذلك بشدة وقالت :

— كيف تترك عدوك الأكبر يطوى القفار إليك ، وتمضى لتتفقد حرب الخوارج ؟

— لأطمئن على موقف المهلب هناك ، فأمضى للقاء عبد الملك دون أن يشغلنى عنه شاغل .

فطفقت تناقشه فى ذلك نقاشا طويلا حتى هم أن يخبرها بحقيقة عزمه ، لو لم يتذكر ما اتفق عليه مع صديقه ابن الأشر .

وتسلل مصعب ذات ليلة فخرج من مدينة الكوفة سرا دون أن يعلم بمسيره أحد ، ولم يكن معه غير ابن الأشر الذي انطلق معه فراقه مسافة في الطريق لا يريد أن يتركه ، إلى أن عزم عليه مصعب أن يعود فودعه وكر راجعا إلى الكوفة ، حيث دخلها قبيل الفجر .

وانطلق مصعب على جواده الأشهب يطوى القفار طيا ، لا يلوى على شيء ويواصل الليل بالنهار ، لا ينزل عن جواده إلا ريثما يريحه قليلا فيعلمه ويسقيه ، ثم يستأنف السير حتى قطع في خمسة أيام ما يقطع عادة في اثني عشر يوما .

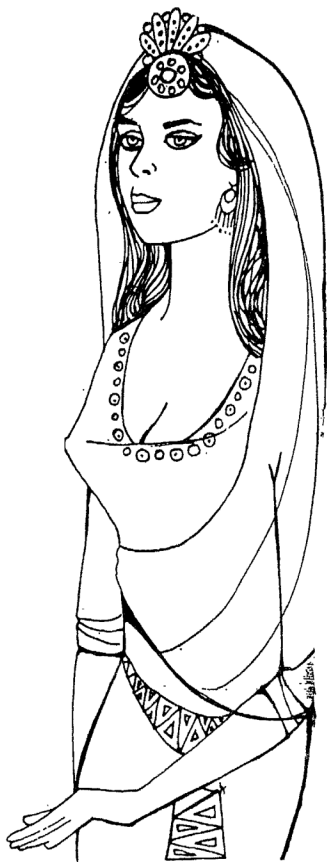
ولم يبطيء من مسيره إلا حينما لمح النيران تضيء من بعيد على مساحة كبيرة من الأرض ، فأدرك أنها نيران جيش الشام قد عسكر في ذلك المكان ، فتنفس الصعداء وقال : الليلة ألقى خليلي عبد الملك !

وخفق قلبه لقرب لقاء صديقه القديم ، وطفق يستعيد ذكريات صباه معه . وأخذت مدينة الرسول تتمثل في ذهنه حيث كانا يلعبان في دروبها صبيين صغيرين ، ويتسابقان على جواديهما في ضواحيها يافعين . ولم يقطع عليه حبل ذكرياته إلا فارسان من طلائع جيش الشام قد برزاه من عرض الطريق كأنما انشقت عنهما الأرض ، فألقى عليهما التحية فردا عليه .

— من الفارس ؟

— رسول من مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان .

— أين الرسالة ؟



— أمرت أن أسلمها إلى أميركم يدا بيد .
فأخذوا يتفرسان في وجهه في ضوء القمر ، ثم نظر أحدهما إلى الآخر
كأنما يتشاوران في أمره .

— هل لكما أن توصلاي إلى أميركم ؟
— نعم ، هلم معنا .

فعطفوا جواديهما وسارا معه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما
لبث الثلاثة أن انضم إليهم عدد كبير من الفرسان فأحاطوا به من كل
جانب . وكلما اقتربوا من المعسكر زادت نيرانه لمعانا ، فظهرت على
ضئونها الخيام العديدة المنصوبة على ذلك السهل الواسع . فأيقن مصعب
صدق ما بلغه من أن عبد الملك قد صمم هذه المرة على ألا يرتد عن العراق
حتى يفتحه .

ولما بلغوا أول المعسكر ترجلوا عن جيادهم ، فترجل مصعب
مثلهم ، ودنا مصعب من كبيرهم فأسر إليه أن الرسالة سرية ، وأن
أميرهم عبد الملك بن مروان ربما لا يريد أن يذيع أمرها في رجال
المعسكر . فأومأ برأسه موافقا ، والتفت إلى أحد رجاله قائلا :

— خذ جواد هذا الرسول فاحفظه عندك ، حتى نطلبه منك .
وأخذ بيد مصعب فمشى به بين الخيام ، فرأى أكثر الجنود فيها قد
أروا إلى مضاجعهم ليناموا ، وبقي قليل منهم بين قائم أو قاعد يهيج فراشه
للنوم إلى أن بلغ به خيمة حمراء فخمة بين خيمتين كبيرتين ، أدرك من
روائها أنها لعبد الملك وحاشيته . فوقف به أمام إحدى الخيمتين ، فإذا

رجل ربة أحمر اللون يخرج منها ليستقبله كأنما كان على ميعاد معه ،
فعرفه مصعب من أول وهلة . إنه محمد بن مروان أخو عبد الملك . فلما
سلم عليه مصعب دهش الرجل ، فوضع يده في مقبض سيفه .

— لا ترع ، أنا رسول مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان .

— بل أنت مصعب بن الزبير .. لا تحاول أن تخدعنى فقد عرفتك .

— لا خداع يا محمد . أنا مصعب ، وأنا رسول مصعب .

— مرحبا بك يا ابن الزبير .. ادخل .

ودخلا الخيمة فإذا فيها رجلان آخران كانا قاعدين ، فنهضا لما رأياه .

— هلم يا خالد .. هلم يا عبد الله . هذا مصعب بن الزبير .

فدهشا قليلا ، ثم أقبلا يصافحانه ومحمد بن مروان يقدهمهما إليه .

— هذا خالد بن يزيد بن معاوية ، وهذا عبد الله بن يزيد بن معاوية .

وجعل محمد وخالد يرحبان به ويوسعان له في المجلس . أما عبد الله فقد

ظل صامتا ينظر إليه نظرة فيها مكر وغدر ، ثم استأذن وخرج .

— أين عبد الملك فأنى في شوق إليه ؟

— هلا قلت أين أمير المؤمنين يا مصعب ؟

— كلا يا محمد ، إن أمير المؤمنين في مكة .

— كذبت ، بل هو هنا في الخيمة المجاورة .

فتبسم مصعب وهو يقول :

— هلا أخبرتموه بمجيئى ؟

— قد علم أمير المؤمنين بمجيئك .

— أتنظن أنه هو الذى بعثنى ؟ لا والله لقد حضرت دون علم منه !

— أنا أعنى أمير المؤمنين أخى .

— وأنا أعنى أمير المؤمنين الصحيح .

قال خالد وهو يضحك مما يسمع ، كأنه مسرور بذلك :

— لا تتلاحيا .. لكل منا أمير المؤمنين .

وارتفع صوت أبح من جهة باب الخيمة ، يقول :

— مهلا يا خالد .. ليس للمسلمين غير أمير واحد .

— هو الذى فى مكة .

— بل هو الذى بين يديك يا مصعب !

وإذا صاحب الصوت هو عبد الملك بن مروان ، قد دخل فى عبادة من الخبز الفاخر وخلفه عبد الله بن يزيد . فوقف عبد الملك باسطا يديه كأنه يدعو مصعبا إلى عناقه ، فوثب مصعب إليه فتحاضنا وتعانقا طويلا لا يكاد ينقطع حتى يعود إليه من جديد ، فى صورة أصدق وأشد حرارة ، حتى شعر الثلاثة الآخرون بشيء من الحرج أن يروا هذا المشهد أمامهم دون أن يدروا ماذا ينبغى عليهم أن يفعلوا . وأحسوا كذلك بضالة شأنهم إزاء هذا الموقف الفريد ، الذى لم يخطر لهم على بال ، ولم يستطيعوا له فهما ولا تفسيرا . وقد ضاعف شعورهم هذا ما بدا من عبد الملك من تناسيمهم وتجاهلهم جملة واحدة ، حتى كأنما كانوا غير موجودين هناك .

وما تخلصوا من هذا الحرج إلا حينما أوما إليهم عبد الملك بالخروج من

الخيمة ، وتركهما وحدهما ، فتسللوا خاجين إلا ما كان من عبد الله بن يزيد ، فقد تلبث قليلا كأنه غير مطمئن إلى انفرادهما في الخيمة ، حتى نظر إليه عبد الملك نظرة قاسية لم يسعه بعدها إلا أن ينسحب .

قال مصعب :

— أحسب هذا الفتى يخشى منى عليك ؟

قال عبد الملك :

— أجل ، إنه لا يعرف ما بينى وبينك يا مصعب .

ولم يكذب ولم يكلمته حتى عاد عبد الله بن يزيد ثانيا ، فصاح عبد الملك

في وجهه :

— ويلك يا ابن أخى . ماذا تريد ؟ ألم أصرفك من عندى الساعة ؟

فتمتم عبد الله قائلا :

— إنه يتقصد سيفه يا أمير المؤمنين ، فهلا أذنت لى أن آخذه منه ؟

فصاح به عبد الملك :

— بل دعه ويلك ، ما أنت وذاك ؟

وهم مصعب أن يلقي بسيفه إليه ، فمنعه عبد الملك قائلا :

— دع عنك هذا يا مصعب ، والله لو غدر بى الناس جميعا ما غدرت

بى أنت .

وخرج عبد الله بن يزيد ، فنظر أحدهما إلى الآخر وانفجرا

بضحكان .

— هلم بنا نجلس يا مصعب ونتحدث ، فأبى فى شوق إليك وإلى

(الفارس الجميل)

حديثك .

— هل دار بخلدك قط يا عبد الملك ، أننى سأجئ هكذا وحدى

إليك ؟

— نعم ، توقعت أن تلقانى ولكن فى غير هذا المكان ، إلا أن تكون

قد خرجت بجيشك من الكوفة ، فهو فى بعض الطريق وسبقته إلى ؟

— لا والله يا عبد الملك ، ما زال جيشى بالكوفة . وإنما جئت إليك

وحدى دون أن يعلم بمسرى أحد .

— أما هذا فلم يخطر على بالى ، وإنه لعمل لا يأتى مثله غير رجل واحد

فى العرب ، هو أنت .

فضحك مصعب وهو يقول :

— وأخشى ألا يقدره حق قدره غير رجل واحد فى العرب ، هو عبد

الملك بن مروان .

واستضحك عبد الملك قليلا وهو يقول :

— صدقت يا مصعب .

ثم لم يلبث أن أطرق واجما .

وران عليهما صمت غريب ، وأخذ مصعب فى أثناء ذلك ينظر إلى

عبد الملك كأنه يريد أن يستشف ما يعتمل فى نفسه .

— ما خطبك يا عبد الملك ، ماذا يدور الآن فى فكرك ؟ بحياتى عليك

إلا ما أخبرتنى .

فتنهذ عبد الملك وهو يقول :



— لقد ألم بى خاطر سوء .

— قالت لك نفسك الأمانة : هذا قد جاء وحده دون أن يعلم أحد من قومه ، فلو ..

وابتدره عبد الملك قائلاً :

— أجل هو ذاك ، ولكن حاشا لله يا مصعب لا ينبغي أن أخيب أملك فى صديقك القديم .

وضحك الاثنان وصفا ما بينهما مرة أخرى .

قال مصعب :

— أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك ، أن تضطر لمحاربتى وأضطر لمحاربتك ؟

— بلى والله ، ولكن الملك عقيم .

— أفلا نبرم بيننا عهداً ألا يقاتل أحدنا الآخر ما حيناً أبداً ؟

— قد علمت يا مصعب أنى لست أقاتلك على شيء ، وإنما أقاتل عبد الله أخاك .

— بل تقاتلنى إذ تقاتل أخى .

— اخلع أخاك وأعلن نفسك مكانه ، فستجدنى أكف عنك وأقاتله معك .

— معاذ الله أن أفعل ما ليس لى بحق .

— أنت أحق والله بهذا الأمر منه .

— ومنك ؟

— لا بل تفضلنى فى أشياء وأفضلك فى أشياء . ولكننا سنبرم بيننا
حيثئذ العهد الذى اقترحت .

— هيهات ! إنك لتعلم أن عبد الله بن الزبير أفضل منى ومنك .
— بأى شئ يفضلنى ؟

— أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ ، وهو أفضل من
أيك مروان بن الحكم ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى أفضل
من أمى وأمك ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى المدينة عقب الهجرة .
— كل هذا حق ، ولكنه هو لا يفضلنى .

— بل هو أتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديما حتى لقبوك
حامة المسجد ، ولكنك ما لبثت أن شغلك الملك عن صلاتك وفقهك .
أما عبد الله أخى فلم يشغله شئ عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .
— ولكنه بخيل ، والبخيل لا يسود أبدا .

— لو شاء أن يتكرم على أصحابه وأنصاره بما فى بيت مال المسلمين
لفعل ، ولكنه أتقى لله من ذلك .

— ألا تعلم يا مصعب أنه بغىض إلى الناس ، وأنتى أحب إليهم منه ؟
— الناس لا ييغضونه وإنما ييغضون الحق ، وهم لا يحبونك أنت وإنما
يجبون المال الذى تشتري به ضمائرهم .

وسكت عبد الملك قليلا ثم قال :

— إن كان عبد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت أنا أنازعه هذا الأمر

بغير حق ، فقيم عرضت على أن نتوابع ؟

— إنما عرضت ذلك إبقاء على الود الذى بينى وبينك .

— الود آثر عندك من الحق ؟

— نعم .. أو ليس كذلك عندك ؟

— لا أدرى والله أيهما أختار لو خيَّرت . ولكن الله لم يحوجنى إلى ذلك ، إذ كان فى مقدورى لو وافقت أنت ، أن أجمع الحق والود فى ناحية واحدة .

— ماذا تعنى ؟

— أعنى ما قلته لك من قبل : أن تخلعه وتعلن الأمر لنفسك ، فأقاتله هو ولا أقاتلك .

— بل أردت يا غدر أن تتغدى به ، ثم تتعشى بى ؟

— لا والذى عقد بيننا هذه الخلعة ، لا أتعرض لك حيثذ أبدا .

— وأنا والله لا أخون أخى أبدا .

وصمت عبد الملك قليلا ثم قال :

— إن كنت تراها كبيرة عليك ، فعندى ما هو أفضل لك من ذلك ..

اعتزل ولاية أخيك وأقم عندى بالشام ، وسأقطعك بها ما تشاء من أرض تعيش فيها عيشة رغدا مع أولادك ونسائك .
فاستشاط مصعب غضبا .

— ويلك ! لقد ساومتنى على الدنيا يا عبد الملك . ألمثلنى تقول هذا

القول ؟ آه لو غيرك قالها !

فطفق عبد الملك يهدىء غضبه ويلطفه ويعتذر له .



— ساعننى يا مصعب ، فوالله ما أردت أن أغضبك . ماذا أصنع ؟
أنت الذى دعوتنى إلى أمر يصعب تحقيقه ، فأردت أن أئتمس له سبيلا
يحققه على وجه من الوجوه .

— أتأذن لى إذن يا عبد الملك ؟

— أين تذهب ؟

— أعود إلى رجالى .

— كلا والله ، لتقيمن عندى بضعة أيام فإنى ما قضيت الشوق
منك .

— أتريد أن تمجزنى عن رجالى لئلا أخرج بهم إليك ؟

— لا والله لأدعئك تذهب إليهم حينما تشاء .

— حين لا يكون بينك وبين الكوفة إلا قليل ؟

— لا ترع .. سنقيم فى هذا المكان ما بقيت معنا ، ولن نبرحه إلا بعد

أن تغادرنا ، فما رأيك ؟

فأطرق مصعب قليلا كأنه يفكر فيما سمع ، ثم قال :

— لا بأس إذن .

— جزاك الله خيرا يا أخى . من يدرى لعلنا نستطيع غدا أن نتفق على

شئ .

وصفق عبد الملك فدخل بعض رجاله فأمرهم أن يدعوا له محمد بن

مروان .

فلما حضر قال له :

— هذا ابن عمك مصعب بن الزبير قد عهدت به إليك ، لتنزله معك وتكرمه جهداً . واكتموا حقيقته عن الجميع ، وازعموا لهم أنه رسول مصعب .

— سأفعل يا أمير المؤمنين .

— اذهب يا مصعب مع محمد ، وسنلتقى غداً إن شاء الله .

* * *

وقضى مصعب ثلاث ليال في معسكر عبد الملك ، كان يجالسه فيها صباحاً ومساءً ولا يفترقان الا عند القيلولة ظهراً ، وعندما يأويان للنوم ليلاً . وكان يحضر مجلسهما الأمراء الثلاثة محمد وخالده وعبد الله أو بعضهم ، ولكن كثيراً ما كانا ينفردان في المجلس فلا يحضره معهما أحد . وكان خل حديثهما يدور حول ذكرياتهما القديمة في مدينة رسول الله ، منذ كانا طفلين إلى أن بلغا مبلغ الرجال ، وحول معارفهما من الناس في تلك الحقبة الغالية من حياتهما ، من بقى منهم ومن مات .

وكانا في ذلك كأنما يمتحان من بئر واحدة على التعاقب بينهما ، فإذا تذكر أحدهما أمراً من الأمور أو شخصاً من الأشخاص ، انبرى الآخر يذكر من التفاصيل ما يكمل به الذكرى التي استحضرها صاحبه . وكانا يجدان لذلك لذة عظيمة كأنما يستعيدان فلذا عزيزة من عهود الصبا وأيام الشباب .

وتكرر النقاش بينهما حول المهمة التي حضر مصعب من أجلها من وجوه شتى وزوايا مختلفة ، غير أنه كان ينتهى بينهما دائماً بالخلاف .

وذات مرة قال له عبد الملك :

— والله يا أخى إني لشديد الحرص على ألا تنصرف من عندى إلا على شيء . ولكنك تسد الأبواب كلها ما خلا بابا واحدا لا سبيل إلى ولوجه .

فأجابه مصعب :

— بل هو الباب الوحيد الذى يمكن أن نلججه على سواء بيننا ، لا غضاضة فيه علتى ولا عليك حتى يجعل الله لنا مخرجا من الأمر كله .
قال عبد الملك :

— إني مصارحك الآن بأمر لا ينبغي أن أخفيه عليك ، فعدنى ألا تثور غضبا إذا سمعته .
— لك على ذلك .

— إننا لسنا سواء يا مصعب فى الرجال والعدة . عندى أهل الشام وهم أطوع لى من بنائى ، وليس فيهم خائن ولا منافق .. وعندك أهل العراق وهم أهل شقاق ونفاق ، فالنصر مضمون لى عليك .
— كلا ، إن النصر بيد الله ، ورجالى ليسوا كما ذكرت .

— إن أخاك عبد الله أعرف بهم منك ، حين قال لوفدهم إليه :

— ودذت لو أن لى بكل عشرة منكم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم .

— ليست الحرب بالأقوال يا عبد الملك ، ولكن بالفعال .

— اعلم إذن أن كثيرا من وجوه أصحابك ، قد كاتبوني يعرضون انضمامهم إلى .

— إن فعلوا فسيخونونك كما خانوني . ولى عنهم غنى بالخلصين الثابتين ، وهم كثير .

— إن شئت يا مصعب سميتهم لك ، وأطلعتك على رسائلهم لتصدقني .

— كلا ، لا ينبغي لك أن تفعل ولا ينبغي لى أن أسمع . ليس ذلك من المروءة يا عبد الملك .

وفي اليوم الثالث حين تهيأ مصعب للمسير ، وخلا به عبد الملك ليودعه ، ناشده مصعب أن يستجيب لدعوة السلام وينقلب إلى الشام ذلك العام عسى أن يجعل الله لهما مخرجا في مستقبل الأيام . وتأثر عبد الملك من كلمات صديقه التي قالها في صدق وإخلاص حتى ترقق الدمع في عينيه ، فتوهم مصعب أنه سيجيبه إلى ما طلب .
ولكن عبد الملك لم يزد على أن ألطف له القول ، ووعدته بالنظر في هذا الأمر .

وتعانق الصديقان لحظة أطلقا فيها الدموعهما العنان ، ثم تجلدا ومسح كل منهما دمه . قال عبد الملك وهو يشيعه إلى باب الخيمة :

— لولا خوفى أن يتكشف سرك يا مصعب ، لخرجت أشيعك إلى
بعض الطريق .
فشكره مصعب على بره وتكرمه ، ثم خرج إلى حيث أعد له جواده
فركبه وانطلق .

(تمت)

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) اختاتون ونفرتيتي	(٢) سلامة القس	(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج	(٥) الفرعون الموعود	(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس	(٨) روميو وجولييت	(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر	(١١) السلسلة والغفران	(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم	(١٤) أبو دلامة	(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة	(١٧) مأساة أوديب	(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع	(٢٠) شعب الله المختار	(٢١) إمبراطورية في الزناد
(٢٢) الدنيا فوضى	(٢٣) اوزوريس	(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران	(٢٦) إله إسرائيل	(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة	(٢٩) جلفدان هانم	(٣٠) في ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات	(٣٢) الشيماء	(٣٣) إبراهيم باشا

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق	(٢) معركة الجسر	(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك	(٥) تراب من أرض فارس	(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية	(٨) مقاليد بيت المقدس	(٩) صلاة في الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل	(١١) عمر وخالد	(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة	(١٤) حديث الهرمزان	(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية	(١٧) فتح الفتوح	(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس		

رقم الإيداع ٣٨٠٧ / ١٩٩٣
الترقيم الدولي 2 - 0785 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجيلة



دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه